الباب الثالث في مقام شكره رضي الله عنه

قال في {الإحياء} اعلم أن الشكر من جملة مقامات السالكين وهو ينتظم من علم وحال وعمل فالعلم هو الأصل فيورث الحالَ والحالُ يورث العملَ فأما العلم فمعرفة النعمة من المُنعِم والحال هو الفـَرَحُ الحاصل بإنعامه والعمل هو القيام بما هو مقصود المُنعِم ومحبوبُه ويتعلق ذلك العمل بالقلب وبالجوارح وباللسان إلخ ثم قال ما معناه إن العلم بذلك في حق الله تعالي لا يتم إلا بأن يعرف أن كلها من الله تعالي وهو المنعم والوسائط مسخَّرون من جهته وهذه المعرفة وراء التوحيد والتقديس ومعنى كونها وراءهما أنها حال زائد عليهما من حيث أن التوحيد بعد التقديس ثم قال الرتبة الأولى في معارف الإيمانِ التقديسُ ثم إذا عرف ذاتا مقدسة فيعرفَ أنه لا مُقدَّسَ إلا واحدٌ وما عداه غيرُ مقدَّسٍ هو التوحيد ثم إن كلّ ما في الوجود من ذلك الواحدِ فقط فالكل نعمة فتقع هذه المعرفة في الرتبة الثانية إذ ينطوي فيها مع التقديس والتوحيد كمالُ القدرة والانفرادُ بالفعل إلخ ثم قال والحال المُستمَدَّةُ من أصل المعرفة وهو الفرح بالمنعم مع هيئة الخضوع والتواضع وهو [2] أيضا في نفسه شكرٌ إذا كان فرحُك بالمنعِم لا بالنعمة والإنعام انتهى بالمعنى ثم قال الأصل الثالث العمل بموجِب الفرح الحاصل من معرفة المنعِم وهذا العمل يتعلق بالقلب واللسان والجوارح أما القلب فقصد الخير وإضماره لكافة الخلق وأما باللسان فإظهار الشكر لله تعالي بالتحميدات الدالة عليه وأما بالجوارح فاستعمال نعَمِ الله تعالي في طاعته والتوَنـّي من الاستعانة بها عَلي معصيته، فبهذه التقريرات تقف علي

كنه قيام {شيخنا رضي الله عنه} بوجوه الشكر علي الكمال فلا عليَّ أكثر من التلويح إلي بعض آثاره منه بذكر بعض قصائده المستفتَح بالشكر وإن كان في سائرها من باب الالتزام والتضَمُّن وفي هذه مطابَقة باللسان فما تقف عليه من الثناء علي الله تعالي وحده بذكر إحسانه والتحَدُّثِ بنعمه والاعتراف بنعمته علي وجه الخضوع والاعتكاف علي بِساط الشهود بإدامة حفظ الحُرمة وإنشاءُ القصيدة وهو في الغربة مما ينبئ عن حاله من الاعتكاف علي البساط ودوام الحرمة قال مُوَشِّعًا بحروف {رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلي والدي وأن أعمل صالحا ترضيه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين}

*

[3]

أشرق بارق النور الأقدس علي قلب العبد المنيب فهبطت نفسُه إلي حضيض الذل والتواضع والخضوع والعجز فأبان رضي الله تعالي عنه بهذا البيت شهودَه مولاه في كل شيء فلم يواجهه بلفظ شكرتك أدبا مع البساط لفراره من الدَّعوَى لأنه يُشَمُّ منه رائحة مكافأة فإن من شكر فقد كافأ والتكافؤُ لا يليق بين ذلِّ العبوديَّةِ وعِزِّ الرُّبُوبية فخنع له باستعطافه لإيجاد الشكر منه سبحانه وتعالي الذي يليق لجلاله ولا يكون إلا منه فهو الشَّكور والمشكور فإدامة حفظه الحرمة أسقط عنه استحقاق شيء والقدرةَ علي شيء وهيبتُه بعدت به عن رؤية الأعداء فقال {رمنا شكور} في مقام الأدب المرضِيّ وهو آداب الأنبياء والصحابة وتربية الكتاب العزيز كما قال النبي {سليمان عليه السلام} بحكاية القرآن {رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي

وعلي والدي وأن أعمل صالحا ترضيه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين} وكما ورد في بعض الكتب عن {موسى وداود عليهما السلام} كلٌّ منهما في مناجاته أنه قال خلقتني بيدك وفعلت وفعلت فكيف أشكرك فقال عز وجل {معرفتك لذلك شكر} هذا ومن الباب تقول الصُّوفيَّة رضي الله عنهم أجلس علي البساط وإياك والانبساط وقد صدق والله بَابَ بنُ حَمْدِ الحاجيُّ إذ يقول لتلميذه عبد القادر الكُمْلَيْلِيُّ العالم النبيل أعجب ما في {الشيخ أحمد بنب} علمُه بولايته [4] وأعجبُه أدبه فليس الأدب اللينُ والانعطاف فحسبُ بل الأدب المرضِيُّ أدب المقرَّبين وهو مشاهدة كمال الرب في كل أمر وخِسَّة النفس كذلك قال في وصية له رضي الله عنه.

*

*

*

*

*

*

*

*

*

*

قوله ندب ليست بحَشْوٍ فإن لجميعِ المطالب فرضا وفضلا ففرض الإخلاص في الإيمانَ أن تؤمنَ بأن الله واحد لا شريك له وفي الإسلام مراعاة الشروط وكمال الأداء وفي الإحسان إقامة العبادة لله وحده بلا إشراك أحد قال تعالي{فمن كان يرجو لقاء ربه [5] فليعمل عملا صالحا ولا يُشرك بعبادة ربه أحدا} ومندوب الإخلاص في حق أصحاب اليمين عدم رؤيتِك لنفسك عينا ولا أثرا في كل ما لربك وشهودك مِنتـَه بالعمل ابتداء كما تتلقى جزاءه منه تعالي تفضُّلا منه بلا استحقاق منك فهو المتفضِّل الكريم المنان أولا وآخرا {وله الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم} أما هو في حق المقربين فكله فرض لا يستحقُّ الحمدَ إلا هو أما غيره فبه لا بنفسه فإن الحمد هو الثناء علي المشكور بما أولاك من معروفه فقوله رضي الله عنه {رمنا} بالحرف الدَّالِّ علي الجماعة أو علي الواحِدِ المُعَظـِّم نفسَه وهو واحد في موقف الذلِّ والانكسار ليس عن تساهُل إنما تكلم عن لسان المَقام الذي هو محوُ المحو وهو البقاء بالله تعالي فالسر الإلهي الذي يقوم بوجوده

م يزل شاكرا لدوام شهوده إنما تكلم عن أجزائه المشتملة عليه المخلوقة له فسِرُّ الروح الذي به تقوم الحياة في المنفوخ فيه لم يزل ولا يزال مُسبِّحا بالحمد والشكر لمستحقه في عالم الغيب والشهادة فساق رضي الله عنه كل ما سوى الله إلي الله فقوله رمنا يريد جميع أجزائه المركـَّبَةِ به وجميع أموره اللاحقة فلم يَقُل رمنا إلا لعلوِّ مشاهدته في مقام الإنس وحال الهيبة قال رضي الله عنه.

*

[6]

*

*

هكذا الفناء في الله والبقاءُ به في الإنس والهيبة وحالُ الهيبة هو أسني الأحوال ومقام الإنس هو أكرم المقامات فهو المقام المحمود المختص به صلي الله عليه وسلم يقول: أسجد فيُلهِمني الحديثَ فسجودُه في هذا الموضع أعظم دليل علي حال هيبته فإن السجود أقرب حالات العبد لربه لما فيه من نهاية التواضع وقوله عليه السلامان {فأحمد ربي بمَحامدَ يُلهمُنيها} أوضح دليل علي مقام الإنس فالإلهام بالثناء غاية العطف والإنس وبه ختم له التفوُّقَ العامَّ في الحظوة العليا والمكانة الزُّلفَى صلي الله عليه وسلم في اليوم الآخر ثم قال رضي الله عنه.

*

في هذا البيت غاية الحمد لله تعالي لأن من كانت الأمور عنده بهذه المَثابة يُفعل بمشيئته ويُترك بمشيئته فهو المستحق لأن يُحمَدَ إليه ويُصغي ويُتوَكَّل عليه ويُرضَي [7] عن فعله ويُحب لاستحقاقه له ولامتنانه علي الموجود بالوجود وهو غني عنه فضلا عما يترتب علي وجوده بعدُ بحَسَب ما قسِمَ له فلا شيءَ يجري عليه بعد نعمة الإيجاد إلا وعليه لمُوجِدِه المِنـَّة فيه وله الشكر لأنه إما ملائم لطبعه فوجوب الشكر واضح وإما منافر له فيجب عليه الصبر لأن النعمة قد سبقت فيه فليس عليه من تعقـُّب غيرها إلا الصبر ليُكافأ النعمة السابقة ثم حسن الظن بمن أنعم عليه ابتداء فإنه علي إعادة النعمة قادر ولا مانع له من ذلك كما أنْ لا حاملَ له عليه قبل ثم هو بعدُ مملوكٌ ولمالكه التصرُّفُ فيه بحكم مشيئته فمعارضته له ظلم فاحش فعليه في هذا الموقف الصبرُ الجميل من الإقرار له بالرُّبُوبيَّة المطلقة ثم الشكر عي ما يُصبَرُ عليه بما وعد به الصابرين كَرَمًا وأعلي من ذلك الفرحُ بكماله والغيبة في شهود جماله وعظمة جلاله سبحانه وتعالي كما هو حال {شيخنا عليه رضوان الله تعالي} إذ يشكر بهذه القصيدة بلسانه ومعه في ذلك جوارحُه بالمجاهدة المستمرة في الله حق جهاده بالنفس والمال حتى تلف فيه جاهُه وتفرَّقت أعوانه وبدَّدَ قبل ذلك أموالـَه وتسلـَّطت عليه المِحنُ فأفقدته التصَرُّفَ في نفسه وأسدلت عليه حُجُبَ الفتن والبلايا علي يد القدر السابق وهو في كل [8] ذلك كما كان وهو مُعَافـًى في بدنه آمنٌ في سِرْبه مطاع في قومه مسَخَّرٌ له الدنيا تـُطاوعُه في جميع إشاراته يهيم بجمال مولاه العزيز ويَسْبَح في بحور خوف جلاله {يسبح له فيها بالغدو والآصال} يستصغر الفتن ويستهين بالمصائب ويستذِلُّ الجبابرةَ ويسخَرُ منهم ومن دنياهم الساقطة عنده انظره وهو في لجَّة المحنة في لـُجِّيٍّ أبحُرِ

الظلمات في {كُونْكُو} بين أعداء ينتظرون تلفه يقول بعد البيت المذكور.

*

*

*

*

انظر رحمك الله كيفَ غيَّبَته المُشاهدةُ عما هو فيه من أهوال الدنيا وأفقدته الإحساسَ عن مُكابَدَةِ الآلام ومعانات المَشقـَّات قام بالشكر علي الحال الذي يرضَى اللهُ ورسولـُه صلي الله عليه وسلم أن يقوم به عليه واستولي علي كله بَواهِرُ أنواره وعظمةُ ربه فأكسبته العِزَّةَ وأولته النُّصْرَةَ لا يُحسِنُ الشكرَ إلا من أجملَ الصبرَ ولا يكون ذلك إلا للمتوكل الصادق [9] في توكله المعاين في حقيقة اعتصامه ولا يصدق إلا لمن استسلم للقضاء ورضي به واستغنى بربه عن غيره ورجا أجرَه بوعده وخاف وعيده بزجره فتاب إليه وتوجه إليه بالشكر له يخدِم جنابه صلي الله عليه وسلم بالاتباع فاستحق به المحبة فأتته بما فاق ظنه {فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين} فقوله رضي الله عنه {وجهت وجهي له بالشكر ذا خدم} البيت فيه الثناء علي الله بذكر الآلاء وتعدادها كما قالوا في حدِّ الشكر

هو الثناء عليه بما أولاك من معروفه وهو ظاهر في أكثر قصائده بعد المجاهدة وبعد انتهاء السير في مقام المحبة الخاصة فأول أعماله بالشكر التوبة فلكل موقف شكر يليق به وهو القيام بالنعمة للمنعم بما يستحقه جلاله في ذلك فشكره تعالي عند التقصير الجِدُّ والإنابة وعند الزلة الحياء والخضوعُ وتقصير كلٍّ بالنسبة لمقامه فليس تقصير عامة المؤمنين كتقصير خَواصِّهم وليس تقصير أصحاب اليمين كتقصير المقربين وكالمثل السائر {حسنات الأبرار سيئات المقربين} فإذا رأيت العتاب والهضم والبكاء علي الذنب من المقربين فاعلم أنه بالنسبة لغيرهم حسنة فتوبته رضي الله عنه في مقام الشكر هي مبايعته لله تبارك وتعالي بعض ما أباحه له رغبة فيما عنده وصرْفُه سائرَ المباحات في ما يرضيه [10] تعالي من الواجبات وما يقرب إليه من النوافل فأشار إلي قبوله منه بقوله {وزحزحني عن المناهي} أي نهْيَ تحريم أو كراهة أو خلاف الأولى وصدق لا يمكن لأحد أن يشهد عليه إلا بهذه الأشياء لا في مَنشَطٍ ولا في مَكرَهٍ مدةَ حياته قال {وعن أفعال مجنون} وهو طلب الشيء أو وضْعِه في غير محله والتضييع لمنفعة والإلمام بغير فائدة وأجل المنافع الدنيوية الأنفاس والأوقات يشكر مولاه علي أنه لم يُضَيِّع نفَسًا ولا وقتا فيما لم يُخلق له وهذا هو مبدأ شكره علي التحلية ثم قال {وجهت وجهي له بالشكر} البيت يشكره تعالي في توجهه إليه بالشكر عمَلا وحالا كما ستقرأ من هذه الأسطر ويشكره علي خدمته لرسول الله صلي الله عليه وسلم ولوَّحَ بكيفية الخدم بقوله {لمن أتانا بمفروض ومسنون} فأول خدمته له صلي الله عليه وسلم اتباع سنته ثم نشر فضائله والتنويه بكتاب الله الذي جاء به والقيام به تلاوة وإحياء كسائر سنته وجميعُ

هذا يُريك أن أولى ما يُخدَم به موافقته علي مراغبه صلي الله عليه وسلم فبما أتى به من ربه تهالي فكان هذا من الشكر بالأعمال ذكره ليُثنِيَ علي مولاه عليه وقال.

*

[11]

شرع في أداء واجب القلم واللسان لأن الأعمال ثمرةُ الأحوال ومن رءوس الأعمال عَمَلُ اليد واللسان شرع فيه بعد أن عَدَّدَ بكل إيجاز واختصار النِّعَم الجليلة عليه من ربه سبحانه من المعرفة والمشاهدة والطاعة والموافقة والرضى والعبادة وجُملتُها هي خلوص العُبودة الحَقَّة وهذه هي الفضائل النَّفسَانِيَّة والأمورُ المعنَويَّة التي بالاتصاف بها والقيام بجملتها يستحقُّ العبدُ مقام الزلفى عند ربه في الرفيق الأعلى وهو الآن يثني علي المولى الكريم بما تلا ذلك وما كان مُساوقُه من النَّصْر الحِسّيّ والكرامات الظاهرة والمواهب الخارقة في ماضي ذلك الزمن وحالِه وما كاشفه به في مُستقبَلِه فقال:

*

*

*

*

*

*

فهو الآن في مقام الشكر وحال الرِّضَى علي ذَرْوَةِ هذا المقام الذي [12] هو الشكر علي البلايا ورؤيتُها هديَّةً من الله تعالي ونِعمَةَ يلتَذُّ بها لما فيها من المُبالاة وكان حَقُّه أن يُذكَرَ في مقام الصَّبْر لأنه يُشبِهُ أن يكون حالَ الشكر في ذلك المقام لعزته ونُدُور دوامه ولكن لمَّا ظهر من أمره أنه شاكر علي الحقيقة فيما أقامه القضاءُ فيه سواءٌ هو بلاءٌ بالخير أو بالشرِّ ولم يتزحزح عن مَوقفه في مُشاهدة المذكور واستحقاقه الشُّكرَ والحمدَ علي كل حال علمنا أنه مقامٌ مستديمٌ لا حالٌ عارضة وحاله فيه الرضى وأوضحَ ذلك بقوله {عن نافع قادر بر رضيت هنا} عَبَّرَ بشهادته النفعَ والقُدرَةَ والبِرَّ منه تعالي بين جميع صِفاته وقولُه هنا يعني المَوطِنَ ولو كان في نفسه كَريهًا فبالنِّسبَةِ إليه هو لربه مَحمُودٌ مَرْضِيٌّ لقيام استحقاقه تعالي عنده في كل طرْفَةٍ ولَمْحَةٍ المَحامدَ كلَّها علي كل حال ووجوبَ الرِّضَى علي

العبد لكل ما قضاه المولى في كل موطن غاب عن المواطن بمشاهدة المُوطِن فاستحقَّ نعتَ الشَّكور خِلعَةً نبَوِيَّة ووِراثة في مقام العُبوديَّة من مخدومه صلي الله علَيه وسلم العبدَ الشَّكور الذي لم يزل في جميع أحواله شاكرا مع ذكره المُلازم له لربه سبحانه وتعالي الدائم الذِّكْر له أزلا وأبدا علي ما يليق بجلاله وسابق علمه قَال صلي الله عليه وسلم كما ثبت عن {ابن إسحاق} وتلقَّتْه الأئمة بالقبول أنه عليه السلام لما رجع من الطائف [13] وقد أظلمت الدنيا في عينيه ولم يلق قابلا لما أتى به من النور ولقِيَ البُرَحاء من سُفهاء ثقيفٍ وهو راجعٌ يُريدُ مكة وقد أجْحَرُوه {اللهم إليك أشكو ضُعْفَ قُوَّتي وقِلَّةَ حِيلتِي وهَوَانِي علي الناس يا أرحم الراحمين أنت أرحمُ الراحمين وأنت ربُّ المُستضعَفِين إلي من تكِلُني إلي عَدُوٍّ بعيدٍ يَتَجَهَّمُنِي أو إلي صَدِيقٍ قريبٍ ملَّكْتَه أمري إن لم تكن ساخِطا عليَّ فلا أبالي غيرَ أن عَافِيَتَك أوسَعُ لي أعوذ بنور وجهك الذي أشرَقتْ له الظلماتُ وصلُحَ عليه أمرُ الدُّنيا والآخرة أن ينزلَ بيَ غضبُك أو يَحِلَّ بيَ سَخطُك ولك العُتبَى حتى تَرضَى ولا حول ولا قوَّةَ إلا بك} فمن نظر إلي هذا الخِطابِ نظَرَ فهْمٍ يعْلم أن المَوطِنَ موطِنُ شِدَّةٍ ويليق به الصبر وهو صلي الله عليه وسلم أصبر الخلق في الضَّرَّاء ولكمال صبره واحتماله صرف نظره عن الخلق وجعل الخِطاب للرب العزيز فافتتح بالشكوَى إليه تعالي بالتذلُّل والافتقار ثم صار إلي التعَزُّزِ به والابتهاج فاستخفَّ بغير مولاه جل جلاله فاستعاذ بنوره من غضبه وسخطه وجعل الأمر إليه فقال ولك العتبى فهو حال الشكر ثم قال حتى ترضى فغيَّاه إلي أن يرضَى فكانت المسافة بين السكون إليه من قوله ولك العتبى إلي منتاها الذي هو الرضى هو مقام الشكر بعد استصحابه الزُّهدَ والخوفَ والرَّجاء

بحال شريفٍ [14] صلي الله عليه وسلم فهو في أول الخطاب مطمئن في مقام الصبر ودام علي الترقي بين عقبات المقامات الثلاث إلي أن انتهى إلي السكون إلي ربه وعليه حالُ الشُّكر فوطَّأ القدم علي مقامه فقال حتى ترضَي فتمَّ استيلاؤه عليه وعليه حالُ الرضى والإخلاص يقطر كالبرد من حال هذه المناجاة العزيزة في هذا الموطن الشديد وخصَّه بهذه الصِّفات ربُّه بمعاينة الحقائق كما تبيَّن ذلك من قوله صلي الله عليه وسلم لمولاه وحِبِّه {زيدِ بن حارثة رضي الله عنه} وقد قال له زيدٌ كيف تدخُل؟ يعني كيف ترجع إلي مكة وهم أخرجوك فقال: {يا زيد إن لله لِما ترى فَرَجًا ومَخرَجًا وإن الله مُظهِرٌ دينَه وناصرٌ نبيَّه} فشكره صلي الله عليه وسلم الذي أنبأت به حالُه شكرٌ حقيقيٌّ علي ما وُضِعَ له لفظه لمعاينة المصير فلم تكن المصائب في عينه إلا أسباب خير يُتوَصَّلُ بها إليه وإلي هذا الميراث أشار {شيخنا رضي الله عنه} بقوله في البيت {وجاد لي بعزيز منه مضنون} ذلك لأن الشكر في هذا الموطن عزيز ومضنون به عن غير أهله ثم قال رضي الله عنه:

*

[15]

*

طفق علي عادته يُناجي مولاه بالثناء والدعاء شِعارَ الأنبياء والصالحين كما عرَّضَ بالعبدَيْن الصالحيْن الذيْن هو الآن علي قدميهما بين الأعداء وفي ظلمات البحر

وكان رضي الله عنه يُكثر من التذكير بحكاية {موسى} وما وقع له من {فرعون} وصَيْرورةِ وَبَالِ ذلك عليه وقومه وكان يُمازحنا مَزْحَ المُفِيد للمستفيد ويقول: {انظروا إلي هذين الخَصْمَيْن واحدٌ تكبَّرَ وأشرَفَ بجَبَروته فوقَ تِلِّ الكِبرِياء المذمُومَةِ يَدَّعِي كاذِبًا {أنا ربُّكم الأعلى} علي هذا العبد المُنخفِضِ في حضيض الذُّلِّ لربه الأعلى وهو يتضرَّع ويُشاهد عِزَّ المولَى يقول: {إني عُذتُ بربي وربكم من كل مُتكبّرٍ لا يؤمن بيوم الحساب} فجعل الله جوابَهم إلي البحر يوم جاوزَه بنو إسرائيل فأتبعَهم فرعونُ وجنودُه بغيًا وعَدْوًا والرسولُ الكريم ومن معه تلقَّاهم البحرُ بكرامةِ ربهم فأكرمهم بالإنفاق {فكان كلُّ فِرْقٍ كالطوْدِ العظيم} والعدو اللئيمُ كادَهُ بنفْسٍ ما أكرم به الكليمَ من الفَلَقِ {حتى إذا فرحوا بما أوتُوا أخذناهم بغتةً} فقال له بلسان الحال كذبتَ في ادعاء الرُّبوبيَّةِ لا إله إلا إلهُ موسى الذي كنتَ تَجْحَدُ وكان رضي الله عنه أكثرُ ما يُسامِرُنا [16] به حديثُ موسى وكان كلما ذكر شيئا من حوادثه مع الأعداء يتجوَّزُ إلي الوعْظِ بذكر قصَّةِ {موسى عليه السلام} وكان يحكي كثيرا أيضا حكاياتَ أصحاب الكهفِ وأكثر من كل ذلك ذِكرُه لأهل بَدْرٍ واستئناسُه بذكر الصحابة ولمَّا مَهَّدَ سبُلَ الدعاء بالشكر أولا والتوكُّلِ والاستغناءِ والرجاءِ العظيمِ قدَّمَ الذلَّ والانكسارَ بقوله {ناجيتُه مستغيثا} ثم شرعَ في الطلبات {ياالله يا حي يا قيوم خذ بيدي} أول ما طلب منه تعالي في هذا المَوطِن أن يأخذَ بيده ويعصمَه بسِرّه المَكنُون الذي لا تصل إليه يدُ فاسدٍ ولا يبلُغُه مَكرُ مَاكِرٍ حتى لا يَحِيدَ عما اختِيرَ له من الأقوال والأعمال والأخلاق والأحوال ويكونَ مَعْصُومًا في جميعِها مما سِوَى المُختار ففوَّضَ إليه سبحانه الاختيارَ فهو أعلم بما فيه صلاحُ العَبدِ فإنه تعالي

بَيَّنَ لنا أمورا هيَ خيرٌ مَحْضٌ وأمُورًا هي شرٌّ صِرْفٌ وأمور بحسب الإضافة تكون نِسبتُها فالعبد يطلب ما تبَيَّنَ له خَيْريَّتُه ويحتمي مما تبين له شرّيته لأنه مأمورٌ بهذه الرَّغبة والرهبة فالعبودية تطالبه لها تعَبُّدًا وحُسنُ الظنّ بربه يُطالبُه بتفويض الاختيار في الإضافيات ثم في التصرُّف في الجميع إلي وليِّه {والله وليُّ المؤمنين} ثم يستديم الطالب ويُعزِمُ في المسألة فيُثابُ بإحدَى الخِصَال [17] الثلاثة التي في الحديث {إما أن يُجاب أو يُصرَفَ عنه مثلُه من المكاره أو يُدَّخَر له إلي يوم الجزاء} وهذا لمن أحسن ظنه بربه فبهذا جعل رضي الله عنه يُعدِّدُ المكاره والمكائد والظلمَ المتوجِّهة إليه وكيف صرَفه مولاه العزيز عنه ونصره في المواطن كلها ليشكره علي ذلك حق الشكر من الثناء وهو نفْسُ تَعداد النعم وإظهارها بهذه الأبيات من القصيدة وهي قوله رضي الله عنه:

*

فما تقدم إلي هذا البيت ما هو إلا إظهار العجز في حالتي الهيبة والإنس من عدم الأمن من مكر الله يُحيط نفسه بحصون الدعاء ليكون ما يأتي بعدها ظاهرا في الشكر علي الإجابة فإن قام بالشكوى من حزبه وبثِّه إلي مولاه فاستجاب له ربُّه وقضى حاجتَه لا يوفي حقه تعالي إلا بالظهور بالمواهب أكثر من ظهوره بالفقر إنسا بربه وكرمه تعالي وهذه هي النكتة في كثرة تحدثه بالنعَمِ وتعداده الآلاءَ من حين انتهاء سيره وتمكنه فصار الشكوَى في حقه سُوءَ أدب إلا ما كان من الطلبات للتعبد مما اقتضته الهيبة والإنسُ في مقام التمكن

للزومها العبودية وما فيها من الأدب المَرْضِيِّ بين العبد وربه قال:[18]

*

*

إلي أن قال:

*

*

*

يقول هذا في مقام الشكر وحالُه التوكلُ والابتهاج بثقة الوكيل والرضى به وعنه قوله {ناجيتك اليوم} البيت يناجيه ويذكر كرمه تعالي وأن كرمه السبب في كل ما أكرم به دون كسبه وتسبُّبِه قالوا إن الزهد عزيز وأعزه الزهدُ في الزهد فإنه رضي الله تعالي عنه نسِيَ كسْبَه ونفسَه ولم يعاين إلا كرَم مولاه علي توفر أسباب ما يُمتَدَح به عند القوم من الصبر في البلاء والشكر في الرخاء إلا أنه لا يشهد في كل ذلك إلا إنعام مسبِّب الأسباب فلذلك استهل الخطاب بكونه له بمجرَّدِ كرمه ليَبْنِيَ شكرَه علي توحيده والرضى عنه فإن الراضيَ

بالقضاء حُلوِه ومرِّه إن أولِيَ الحُلوَ وجُنِّبَ المَرارةَ ذلك الذي يعرف مقدار ما أولي من النعم فلذلك شفع الخطاب الأول بالثاني بقوله {يا مغنيا جوده بلوى ينسيني} فإنه تعالي إذا [19] أعطى أغني والجود هو الإحسان وهو تعالي الجواد علي الإطلاق بلا شيء يجلِب الإحسانَ أو يدفعه فذكره البلوى يتفخَّمُ لنعمة الإنقاذ وإن كان أجمل الصبر قيلا وأنشأ يقول:

*

فتخصيصه الاسم الكريم والوصفَ بالكرم من بين سائر الأسماء والأوصاف خيرُ ما ينبئك عن عين مشاهدته وحال مباسطته في أنسه فإن الكريم المُحَقَّق الكرم تنشط معه النفسُ أكثر من غيره من حسن الاعتماد علي كرمه وأنه المفيض من حقيقته لا من خارج فقوله {شفى كلي بتحسيني} تضمَّنَ ثناءً جميلا فإن الشفاء منه ما هو حسِّيٌّ ومنه وما هو معنويٌّ فأمراض الأجسام قد شفاه منها وأمراض القلوب قد أزاحها أيضا ومن الشفاء الانتصارُ علي العدو وهو الشفاء من الغيظ وقد أكرمه الله تعالي بكل ذلك مع زيادة والتحسين صيغةُ مبالغةٍ تشير إلي استئصال أصول الأمراض وتنمية جراثيم الصحة وغلبة الأعداء وروضهم لينقادوا طائعين ثم طفق رضي الله عنه يُعدِّد أسباب شكره لأن الشكر كما في الرسالة هو الاعتراف بنعمة المنعِم علي وجه الخضوع قال {الغَزَالِيُّ} هو نظرٌ إلي فعل [20] اللسان مع بعض أفعال القلب وذلك لأن الاعتراف إقرارٌ بالقلب والخضوعُ مَظهَرُ اللسان وقيل إن الشكر هو اعتكاف القلب علي بِساط الشُّهود وبإدامته حِفظ الحُرْمةِ وقال {حَمْدُونُ القَصَّارُ} شيخ المَلامِيَةِ بنَيْسَابُورَ: شكرُ النعمة

أن ترى نفسك في الشكر طُفَيْلِيًا وقال {الجُنَيْدُ}: أن لا ترى نفسك أهلا للنعمة قال {الغَزَالِيُّ}: هؤلاء أقوالهم تُعرِبُ عن أحوالهم فلذلك تختلف أقوالهم ولا تتفِقُ ثم قد يختلف جواب كلِّ واحدٍ في حالتين لأنهم لا يتكلمون إلا عن حالتهم الراهنة اشتغالا بما يهُمُّهم إلخ ونحوُه في رسالة {القُشَيْرِيِّ} وما قاله {الغَزَالِيُّ} ظاهر في مناجاة {شيخنا رضي الله عنه} أما قول {حَمدُون القصَّار} فظاهر فيما قَدَّمنا من قوله في استهلال القصيدة {رِمنا شكورِ الذي بالكاف والنون} فإنه من شهوده المِنَّةَ من المَنَّان والشكرُ من أعظمها تبرَّأ منه ووقف موقِفَ الطفيْلِيِّ فرام منه تبارك وتعالي أن يَمُنَّ عليه به وقول {الجُنيْد} أن لا ترى نفسك أهلا للكرامة فظاهرٌ مما ذكرنا آنفًا عنه من قوله {أنت الكريم الذي تُعطِي بلا سبب} تبرَّأ من كل حول وقوَّةٍ إلا بالله فجَرَّدَ نفسَه من كل دعوَى أو شُبهتِها أما ما قال {القُشَيْرِيُّ} وجعله حقيقة الشكر عند المُحقِّقين من أنه الاعتراف بنعمة المُنعِم علي وجه الخضوع فهو ما في الأبيات الآتية قال:[21]

*

*

*

*

*

*

*

هكذا فليكن الاعتراف للمُنعِم العظيم بالنعمة علي وجه الخضوع علي بِساط الشهود وما أوضح حِفظَه الحُرمَة في قوله:

*

*

هذا هو حفظ الحُرمة والوفاء بالعهد فإنه رضي الله عنه استرقَّته الحُرِّيَّة فاعتزَّ بربه وتاه علي المتكبِّرين واستخفَّ بالجبابرة فتأنَّف عن الاستعانة بأدنى شيءٍ من

جنابهم فاستكان لله تعالي فطلب به منه فقوله {إن شاءه من به أبغي السكون به} وفي نسخة {أبغي السكون له} ليس بالتكرار [22] المذموم عند البيانيين فكأن اللفظ إنما كرِّرَ لمعنًى لو لم يأت لأخلَّ بالمَعنَى فإنه رضي الله عنه ارتقى إلي شُهود الذات غائبا عن كل فعل وصفة وفرَّ منه إليه علي حَدِّ قوله صلي الله عليه وسلم في الصحيح: أعوذ بك منك.

حكى عليَّ شاهد عين أنه في الغربة في إحدى الجزائر المُظلِمة أولَ أمره والحُكَّامُ لا يعرفونه من بين الغرباء أرسلوا إليه ذات يوم ليدفعوا له الراتب ولما دخل وفي يده لوحُ الكتابة لم يطرحه عدَّدُوا شيئا من الفضة وناولوه إياها فأطرق كالمُغضِب ثم خطفها من يد الحاكم فضرب المائدة فتطايرت علي الحاكم فآذته إيذاءً فأنشد البيت {كتبت في البحر} إلخ ثم رجع إلي محلِّه فبُهِتَ الحاكمُ ساعة فراجعه حِلمُه فعرف أن من يسلك هذا المسلك وهو في الغربة وأشدِّ المِحَنِ غيرُ حاضرٍ مع أهل الدنيا فصاروا يرسلونها إليه وكلما حملها أحدٌ إليه يتركها في يده فينقلبَ بها ويَعُدَّها سعادةً عظيمة إلي أن تفطَّن لذلك الحاكمُ ورأى تسابُقهم إلي التوسُّط في ذلك فصار يُمسِكها ثم يُخبره فيقول له {شيخنا رضي الله عنه} شأنك بها كلُّ ذلك حِفظا للحرمة ووفاءً بالعهد.

ثم شرع يذكر الآلاء ليَشكره عليها فقدَّم التحميدَ والتمجيد وتجديدَ الاستسلام والانقياد وهو في [23] حال الحياء في مقام الإنس قال رضي الله عنه:

*

انظر كيف يستهين بالمِهَن وأهلها حتى في صِيَغِ الألفاظ يقول {عند السليطين} مما يدلك علي ضُعفِه وذِلته عنده بالنسبة للقوَّةِ التي يُشاهدها عن يد القويّ المتين وكيف يَسخَر بهم وبرضخاتهم قال رضي الله عنه:

*

أعاد ذكر الآلاء ليُمجِّدَ الشُّكر عليها وجرَّدَ نفسَه عن نِسبةِ أيَّةِ قوَّة إليها وحولٍ علي عادته قال رضي الله عنه: {يقود لي كل ما أهوى بلا سبب} ردَّ النسبة إلي كرمه حتى قوَّةَ القيام بالشكر بقوله {وبخير الشكر يُحيِينِي} فإن الإحياء قبل كل شيء وعنه يكون الشكر وهذا يُنظر بعين التوحيد المَحْضِ فلم ير قائما إلا الحيَّ القيُّومَ فلا يكون الشاكر إلا هو ولا يكون المشكور غيرُه لأنه المُوفِّق لعبده أن يشكر فهو رضي الله عنه لا تزال [24] الأحوال الدينية تختلف عليه في مقام التمكين والسكون وهو التلوين في التمكين رأى في المشاهدة العيانية أن ليس في الوجود غيرُه تعالي قال في {الإحياء} وهذا نظر من عَرَف أنه ليس في الوجود غيرُه وأن كل شيء هالك إلا وجهه إلي أن قال: فإن نظرت في هذا المقام عَرَفتَ أن الكلَّ منه مصدره وإليه مرجعه فهو الشاكر وهو المشكور وهو المحِبُّ وهو المحبوب {فشيخنا رضي الله عنه} لم يزل فانيا عن نفسه وعن غيره وإنما يُشاهد في الكل قيُّومِيةَ المولى فكان هواه مع اختيار الله تعالي في كل شيء يوم نفسه ويُقرعُها من حيث أنه عبدٌ ويشكر مولاه ويحمده ويُثني عليه من حيث أنه ربٌّ وأنه أهلٌ لذلك يثني عليه بدفعه عنه وجلبه إليه فإنما يُشاهد جميل فعله تعالي وإتقان صُنعِه في مبتدعاته وخلقه حيث اقتضت الثناءَ العُبودةُ واستحق لأن

يُثني قال يُعَدِّدُ الآلاءَ ليُثنيَ عليه بها علي العادة من أول القصيدة أنه يُقدِّم التحميد والتمجيد بالأسماء والصفات ثم يُثني بذكر الآلاء ويُردِفه بالشكر عليها والثناء علي مولاه بها ثم يستأنف أبياتا علي هذا النمَط ثم يرجع إلي التحميد بعد أبيات ويختم بالشكر ثم يستهل مرة أخرى كالأولى بانسجام منتظِمٍ لا يفطِن لابتداعها إلا من تدبَّرَها [25] قال رضي الله عنه:

*

*

ذكر أنعامه تعالي عليه ليُجّدِّدَ الشكرَ كما قال بعد هذه الأبيات المسرودة:

*

طالما استعاذ بربه من الشيطان وأوليائه فما زال ربُّه تبارك وتعالي يُعيذه منه حتى أيَّسَه وجميعَ حِزبه الخاسرين منه رضي الله تعالي عنه فكيف يودي شكرَ هذه النعَم إلا بتوجُّهِ القلب بجميع زواياه كما في الحديث {إن في الجسد مُضغةٌ إذا صلحت صَلُحَ الجسدُ كلُّه وإذا فسدَت فسد الجسدُ كله ألا وهي القلبُ} فلذلك اقتصر علي ما ذكره من بين الكل تفنُّنًا منه رضي الله عنه في مقاصد الكلام ولا يتمُّ شكره تعالي إلا بشكر مشكوره المصطفى من خلقه صلي الله عليه وسلم ولا يُكمِّل العبدُ القيامَ بحقائق الشكر إلا بالطاعة لله بالكل والجزءِ

والحُرمةُ له عليه السلامان بكل ذلك لله تعالي أداءً لحقه ومُكافأةً له صلي الله عليه وسلم ولابد من بَسْطِ شيء [26] من مُبهَم هذه الأبيات كما كنا نأخذ عنه في مَجالسه رضي الله عنه فلذلك قال بخدمة المصطفى علي حالة الشوق بكونه فيها وهي عِبارةٌ عن احتراقٍ ولوْعةٍ يَجدُه العاشق عند تجدُّدِ ذكر معشوقه أو ذكر بعض آيات مَحاسِنه وهو أنسب لحاله رضي الله عنه فإنه لا يفتر عن ذكره صلي الله عليه وسلم لحظة ثم أردف الذكر بالصلاة عليه مُنبعِثا عن انفعال قلب شغفته شِدَّةُ التَّلذذ بحضور المُنتظر الذي لا يزال يشرأب له فقال رضي الله عنه:

*

ثنى بالتقرُّب إليه تعالي بالدعاء الذي هو شِعَارُ العباد المُخلصين ولم يقف حتى أظهر الذلة بين يديه عز وجل وأثنى عليه بما هو أهله بقوله {تكريما بمخزون} نكَّرَه تعظيما من اتباع قوله عليه الصلاة والسلام وليعظم الرغبة فالهبة إذا كانت تصدُر عن كريم تفضُّلا وامتنانا فحقُّ الراغب المشاهد أن يُوسِّعَ الأمل فقال رضي الله عنه:

*

[27]

*

قبل صدَقة مولاه الكريم وقام بعبوديته من شهوده نفسَه عبدًا طمَّاعًا وربُّه ربًّا وهَّابًا فنظر إلي كمال افتقاره وعِظمِ مَطامِعِه وشاهَدَ عُمُومَ مواهب ربه تعالي وشُمولَ غِناه وما اقتضاه كرمُه من البِرّ والجُود واقتدارُه علي الإغناء بتسهيل الأسباب وتسخير الأرباب فقال: {بكونك وهابا مناي معا} أكده بمعا لمعرفته أن من رغبه في الطلب لا يتعاظمه شيء فوثق بعلمه الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة فأجمل بقوله {مناي معا} ثم استعطف بالتعريض بقوله {يا خير مغن بإعطاء المخازين} ومن لطائف هذا التعريض أنه أنشأ القصيدة في موضع متوسِّطٍ بين مساكن حكومة الجزيرة ومخازينها وقد زهِد فيها وفي جميع ما بأيديهم إلي أن آلي علي ربه أن لا يقبل منهم دانقا من أي وجه فلم يرهم من غناهم الأضفى إلا فقراء في زيِّ الأغنياء ولم ير الاستيلاء علي الأشياء إلا حُجُبًا عن رب الأشياء ما لم يُشاهد المستولي يدَ الوَلِيِّ الحميد في الجميع ويرى يد نفسه آلة تصريف في كل ما تصرَّفتْ فيه فعظم الرغبة من حيث أن الدعاء هو العبادة وأظهر الطمع من حيثما هو مَظهَرُ الفقر والعجز اللذين هما ضِدُّ الاستكبار [28] قال صلي الله عليه وسلم في الحديث الصحيح {الدعاء هو العبادة} فاقرءوا {إن الذين يستكبرون عن عبادتي} وهو رضي الله عنه في حال يرضَي بما يجري به من العطاء والمنع وإن خُصَّ بالعطاء من سابقة الحسنى له من ربه العلي العظيم فقوله {يا لله يا بر يا رحمان سق غرضي} إجابةً منه لله عز وجل قال وقوله الحق {ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها} وهو رضي الله عنه غرَضُه المنشود العبادة الخالصة بأنواعها البدنية والمالية اللازمة والمتعدِّدة وقال {غير محزون} أي ولا مخوف يَنظر فيه إلي قوله تعالي {الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا

هم يحزنون} وقال {دون كسب} أي يرى نفسه فيه المُكتسَب من دعاء استُجِيبَ أو وعد بشيء استُحِقَّ فإنه رضي الله عنه لا يُشاهد في طلباته إلا لُطفَ مُحرِّك الرغبة الأولى أو معَيَّن الإرادة الراجعة علي غيرها ولا يُعايِنُ في الإجابة إلا وفاء الكريم من كمال كرمه وعطفه علي جميل صُنعِه من كمال حكمته أما الكسب بالإخلاص وإقام العبودية فهو عنه بمعزل من قديم ولو مرَّ به مع الخواطر فحقُّه الاستعاذة منه وقال رضي الله عنه وعنا به:

*

[29]

فهو رضي الله عنه يشفَقُ مما غمَرَه من المواهب أن يُفلِتَ منه شيءٌ عما اختاره الله تعالي وقد عايَن الإقبال ومواقعَ القبول مما جرى وقد استيقن بالإجرة والأمن إلا أن كل ذلك لا يمنع الحساب والعَرْضَ وقد قال صلي الله عليه وسلم {مَن حُوسِبَ عُذِّبَ} فقيل له في قوله تعالي {فسوف يُحاسَب حسابا يسيرا} فقال ذلك العَرْضُ ومن نُوقِشَ الحساب عُذِّب فهم رضي الله عنهم وإن عاينوا الأجر ووُعِدُوا بالأمن فلا يزالون يُشفقون من العِتاب واللوم والعرض وقد أعيذ من جملتها فلا بد من القيام بأسباب النجاة منها من تجنُّب كل ما يُوقِعُ فيها ومن الاستعاذة بالله منها من الدعاء المستجاب من إيتاء الله له رُشدَه من قبل ثم تَذَكَّرَ رضي الله عنه واجبَ البُرور من استحضاره جميع أوامر ربه فقال:

*

*

هذا هو القيام بأعباء الشكر جُمْلَةً الثناءُ واستعمال النعَمِ علي رضى المُنعِم ورضاه تعالي أن يشكر باستقرار التوحيد في القلب واستعمال اللسان بالذكر واستعمال الجوارح بالطاعة كما قال {شيخنا رضي الله تعالي عنه وعنا به}:[30]

*

وقال صلي الله عليه وسلم وقد ورِمَت قدماه من طول القيام {أفلا أكونُ عبدًا شَكُورًا} وهذا فوق شكر الشاكرين وقال عليه الصلاة والسلام {وجُعِلتْ قرَّةُ عيْنِي في الصلاةِ} وهي إتلاف المُهجَةِ في الخدمة للمولى عز وجَلَّ وقال صلي الله عليه وسلم والدم يُمْسَحُ عن وجهِه {اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون}ومن هذا شكرُ شيخنا رضي الله عنه في هذا الموطن من بذل النفس والنَّفيسِ في سبيل مرضاة ربه علي سنة العبد الشكور صلي الله عليه وسلم وامتلاءِ قلبه من محبَّته والعِشْقِ المستهلك في محاسنه حتى صار بمشاهدته يستلِذ البلايا التي بلغت مُنتهى وَهَجِ شِدَّةِ حَرِّها فصرف قلبه وحِسَّه عن التَّفَكُّر في طرُقِ الخَلاص منها وجعل يشتغل باستقصاء حقائق واجبات القيام بشكر مولاه في اقتناص مَراضِيه باقتياد مَخدُومِه عليه

الصلاة والسَّلامُ فقدَّمَ الثناءَ علي الله تعالي ومدحِ رسوله صلي الله عليه وسلم بلسانه موافقا في الحال لما عليه قلبُه وجوارحُه من اتباع السنة والعمل بالكتاب وجُمْلةُ هذه هي العبادةُ لأنه لا عِبادةَ لمن لا يؤمن بالرسول ويتبعه وقد قال تعالي {واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا} [31] فجعل تعالي مع العبادة وعدم الإشراك بِرَّ الوالديْن و{شيخنا رضي الله عنه} بعد توفية المَوْطِن حقَّه بينه وبين ربه ورسوله صلي الله عليه وسلم جعل يذكر الوالدين ليودِّي حقهما من الشكر لهما ففي الحديث {من لم يشكر الناس لم يشكر الله} فقال:

*

وقد جازاهما خيرا من حديث {مَن أحسن إليك فقلتَ له جزاك الله خيرا فقد كافأته} بالمعنى وقوله {بتمزين} أي بمدح لهما أي من الله في الممدوحَيْن وبمدحي لرسول الله صلي الله عليه وسلم وهما السبب في وجود الثاني ثم ختم الفَذلَكَةَ بالصلاة علي عادته وقال {علي النبي صل} البيت وقوله {يا من كفاني عدوا} إلخ العدو هو الشيطان الذي يَصُدُّ عن السبيل ويُوَسْوسُ ويُزيِّن ما ليس بزيْن وقد أخذ الله بيده من أول أمره وأول دلائل ذلك زُهدُه في الدنيا وقلة مبالاته بأهلها وحفظه تعالي إياه من شرُورِها وشرور أهلها وكذا استقامته كما أمِرَ وأول دلائلَها أيضا قيامُها بالواجب والمندوب واقتصادُه في المباح من لدنْ عَقَلَ وتسْهِيلُ الله له تهيِأةَ أسباب سعادته كلها وتمهيده له أخلاقه الكريمة لتستقرَّ عليها قواعِدُ مقاماته وتنويرِه عقلَه

لتشرَقَ عليه بسهولة أنوارُ بصيرته وإذا أراد الله أمرا بامرئٍ هيَّأ له أسبابه وقد تقدَّم أن الطاعة [32] هي شكر الجوارح ورؤية المُنعِم وهي شكر القلب والذكرُ هو شكر اللسان ومنه الثناء والحمد فالمشاهد للمنعِم والمراقِب له لِيَلا يُقصِّرَ في أداء حقه لو لم يزهَد في النعَمِ استلذاذًا لرؤية المُنعِم لم يفِ بواجبه قال في {القوت} وكان ابنُ السَّمَّاك يقول الزاهد قد خرجت الأفراح والأحزان من قلبه فهو لا يفرح بشيء من الدنيا أتاه ولا يحزن علي شيء منها فاته لا يُبالي علي عُسر أصبح أم علي يُسر.

وقال {أبو سَعِيد بنُ الأعرابي} عن أشياخه الصوفية إنما الزهد عندهم خروج قدر الدنيا من القلب إذ هي لا شيء ولا يكون في نفسه زاهدا ولم يترك عن نفسه شيئا إذ كانت لا شيئًا فالعبد مُطالَبٌ بشكر معبوده من حيث هو عبدٌ والربُّ ربٌّ قال في {القوت} فعلي المؤمن أن يشكر في القبض والمنع كما يشكر في العطاء والبسط ثم يشهد الشاكر بقلبه شهادة يقين ويعلم أن وصفه وصفُ العبودية وحكمه أحكام العبيد محكوم عليه بأحكام الربوبية وأنه لا يستحق علي الله شيئا وأن الله عز وجل يستحق عليه كل شيء فالعبد خلقه وصنعته والرب خالقه ومالكه فإذا شهد العبدُ هذه الشهادةَ رأى لله عز وجل عليه كل شيء فرضيَ عنه بأدنى شيء ولم ير له علي الله شيئا فلم يقنع لله تعالي منه بشيء ولم يطالبه [33] مولاه بشيء، فبهذا يتحقق أن من أخرج من قلبه حُبَّ الدنيا بل حبَّ شيء لغير الله وأسقط من عينه غير ربه بل هو علي الدوام في مشاهدة صانعه وصانع النعمة ووليِّه ووليِّ النعمة فهو في أعلي مقام الزهد الذي هو الزهد في الزهد لأنه لو لم يزهد في نفسه لبقِيَ عنده لها أثرٌ في الجلب والخوف والطمَع والدفع

فلذلك قال في {القوت} وفي الشكر مقامان عن مشاهدتين أعلاهما مقامُ شكورٍ وهو الذي يشكر علي المكاره والبلاء والشدائد واللأوَاء ولا يكون كذلك حتى يشهدَ ذلك نِعَمًا تُوجِبُ عليه الشكر بصدق يقينه وحقيقة زهده وهذا مقام في الرضى وحالٌ من المحبَّةِ، وإذا ثبت ذلك {فشيخنا} مثال الشاكر الشَّكُور.
حكى عليَّ {مُختَارْ جَخَتَ} ابن {القاضي مَجَخَتَ كَلَ}أنه كان ذات يوم يتحدَّثُ مع {شيخنا رضي الله عنه} في شأن والده {مجخت} إلي أن قال له ماذا قال والدك إذ سمع بتغريبي قال المريد اندهش اندِهَاشًا شديدا غريبا ثم قال لو علِمْتُ لفدَيْتُه ومَن قَبِلَ لي من المسلمين حتى لا يذهب بكل رخيص وغالٍ يا لَلإسلام فقال {شيخنا رضي الله عنه} للولد الحاكي كذلك كان حالُه معي ولكن الغيبة هي سبب كلِّ خير كنتُ أريده معاذ الله أن لم تقع وأوَدُّ لو وجَدْتُه حيًّا حتى يقِفَ علي ما حَصَلتُ عليه من جزائها وهذا المعنى هو ما جعله يتكلَّمُ عن أحواله الراهِنة في قصائده [34] البحرية بلسان الشكر دائما ويعمل بلوازمه من الطاعات وإقام العبادات بلا فراغ حتى يتبين لكل من جاوره هناك أنه ليس ممن يملك حالا مع ربه.
حكى عليَّ رجلٌ اسمه {دَكْرَ} كان معه في {الامْبَارِيينَ} وكان سبب اتصاله أنه كان في عسكر الحكومة في {كَابُونْ} وأعطوْه أشهُرًا للاستراحة فذهب إلي أرضهم عند حدود {سنكال} ولما رجع علم به {الشيخ إبراهيم فال} في {دَكَارْ} إذ بلغه أن هنا رجل مسلم يريد أن يذهب إلي {كونكو} وأخبره أحد مَعارفه أنه أمين يُودِّي الرسالة فكتب {الشيخ إبراهيم فال} رسالة مع هديَّة ليُبَلِّغها {للشيخ رضي الله عنه} قال الرجل لما نزلتُ {بكَابُونْ} سألتُ عنه فقيل لي نُقِلَ

إلي {الامْبَارِيينْ} فسألت حديث عهد من عندهم فقال هناك بعضٌ من المُغَرَّبِين أهو فلانٌ؟ قلتُ لا وقال هو فلان؟ قلت لا ثم ذكر رجالا كلهم أقول له لا فتفكر قليلا ثم قال لعلك تريد الشيخ المعتزل في بيته وحده ولا يخرج منكبا علي عمله قلت نعم فأدَّيتُ الرسالة علي اسمه إذ ذكروه لي ثم كتب الله في قلب هذا الجنديّ حُبَّ {الشيخ رضي الله عنه} إلي أن طلب من الحكومة أن يتوظَّفَ في {الامْبَارِيين} برَسْمِ بِيرْ كَجَّ ثم ترك الحكومة ولازم {شيخَنا رضي الله عنه} يخدِمُه هكذا يُقيِّضُ الله لمن اختاره لدينه من يخدِمُه إذا خدَمَ موْلاه بإخلاص انظر كيف [35] قيل هو المُلازم بيتَه ولا يخرج فلم يشُكَّ في أنه هو ألم تره يقول وهو في أشد حال يُخاطب مُدَبِّرَ الأمور وقد انتبذ بالعراء وهو غريب:

*

*

*

*

*

*

*

*

*

*

انظر ما أعلى مشاهدته في هذه الأبيات فالرضى علي الله والشكوى إليه تعالي شِعار الأنبياء وكمَّلِ الصالحين قال تعالي عن {نوح عليه السلام} {إنه كان عبدا شكورا} قالوا لأنه يشكر الله تعالي علي كل حال من خير وشر ونفع وضر وهو عليه السلام القائل {رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائي إلا فرارا} إلي [36] أن استوفى الحُجَجَ البالغة عليهم ويئس من توبتهم قال {رب لا تذر علي الأرض من الكافرين دَيَّارًا} وقال نبينا عليه الصلاة والسلام {اللهم إليك أشكو دعاء

ثقيف} وقال {اللهم عليك بفلان وفلان} لرجال من {قريش} قتلوا بعدُ فشكره رضي الله عنه في المواطن الكريهة شكر مُحِبٍّ يُشاهِدُ وَصْفَ مولاه الكريم قال في {القوت} وهذا هو شكر العارفين ومُشاهدتُه هو مقام المقربين والشكوى والابتهالُ إليه عُبُوديَّةٌ فهو عليه الرضوان في مشاهدة أوصاف مولاه العظيم شَكورٌ مُحِبٌّ يشكر الله لله ويُحب الله لله وجزاؤه من المَزيد الملتزِم دوامُ تجَدُّدِ المحبة والتقريب وفي ملاحظته للحكمة وإشفاقه لعِظم الجبروت عامَلَ بالشكر من إزاحة النفس عن مقاربة أوصاف الربوبية وقمعها في حضيض العُبودية وإذلالها بدوام الخدمة للجناب العزيز واستنطاقِها لتَبُوحَ بالاستكانة ولتُقِرَّ بالعجز وتظهَرَ بالفقر فتنجَرَّ بالافتقار إلي الله عليها أذيال الرحمة المنزَّلة {إن رحمة الله قريب من المحسنين} ولا مَظهَر للعبد أجمع لهذه من الدعاء والابتهال فإن من آداب البساط مَدُّ الأعناق عند القوة قالوا اقعُدْ علي البِساط وإياك والانبساط فهذا من أسرار الابتهال من الكُمَّلِ في المواقف وهو ظاهر في مناجاة {شيخنا رضي الله عنه} لمن تأمَّلها ورُزِقَ شيئا من [37] الفهم سواءٌ من البحريَّات وغيرها من لدُنْ ألقَى عن رقبته سلاسل المشايخ الكرام وبايَع سيدَ الوجود صلي الله عليه وسلم بالكتاب والسنة والخدمة بالصلاة والمدح ونسيانه السِّوَي ظِهْرِيًّا فلوَّحَ علي ذلك بقوله {لك الثنا} البيت فأوَّل ما يشكر به ربَّه في هذه الحال أخذه بيده وتولية تربيته باتباع أوامره واجتناب مناهيه واقتفائه سننَ رسوله عمَلا وحالا وترقيته إياه بخدمته صلي الله عليه وسلم بما أكسبه من كمال المحبة فيه عليه الصلاة والسلام خصوصية منه تعالي وقد سهَّل عليه التخلُّقَ بأخلاقه والنصرَ لسنته والذَّبَّ عن حوْمَته صلي الله عليه

وسلم وحضرتُ ذات يوم وقد ذُكِر عنده كتابٌ كان جرى بين خاله العلامة {محمد بص} وبين من كان يعتقد فيهم ويزورهم من الأشياخ كان كتبه الخال يستعطِفُ به ذلك في أن يَنصَحَ ابن أخيه ويُعينَه علي ما هو بصَدَدِه من طلب الحق فبقي الكتابُ عند أحد أولاد الخال لأنه لم يُرسَل بعدُ لأن سببه انقضَى قبل بعثه وذلك أنهم فقدوه زمنا من الأزمان وقد كان ترك مريديه في {امبك} وذهب وحده مع عدد قليل من صادقيهم وما كان بعضُ المريدين المقيمين في الدار في عَمًى عن كل أخباره ولكنهم لا يبوحون لأحد بأدنى شيء من حركاته وَفاءً ومنهم {الشيخ عبد الرحمان لو} القائم بالقرآن تعليما [38] وتدريسا وإنه ليقوم به في ركعتين كثيرا أو في ركيعات فذكر ولد الخال الكتاب {لشيخنا رضي الله عنه} بل رفعه له فنظر فيه نظرة فرده إليه ردًّا وقال: ذلك زمن أنا فيه كالمجنون للجولان للمشايخ وأخذ الأوراد كأنه جنون في من هيَّأه تعالي من أخِصَّاء رسوله صلي الله عليه وسلم وخِلْصَانِ عباده فبهذا المعنى قال كالمجنون ولم يقل كالمجذوب لأن المجذوب مُرَادٌ ثم إن رُدَّ بالقيادة حتى يَمُرَّ بأقدم السالكين فهو المُريد المُراد فهو مراد من قديم وعلامته انجذابه لحب الله تعالي وحب الصالحين من لدن عَقَلَ ومن بُدُوِّ علامته حِرْصُه علي الاستفادة من كل من سمع عنه خيرا أو ظنه به وقبوله لكل من ظهر عند الأئمة صَلاحُه واعتقادُه في كل من ثبتت عنده وِلايتُه من المتقدِّمين وسلوكُه بأورادهم ودوامه عليها إلي أن انكشف عنه الغِطاءُ عند ما انتهى إلي حيث قدَّر الله استخلاصَه له جل وعلا فلم يزل يتوب من ذلك التطلب ويتندَّم علي ذلك لمَ لمْ يصرفْه فيما كتب الله فيه سعادتَه وهو تفريد القرآن من بين الوسائل والثبات علي خدمة الرسول صلي الله

عليه وسلم دون أن يصرِف أدنى نصيب منها لغيره عليه السلامان قال في بيت وهو في مقام المحبة رضي الله تعالي عنه:[39]

*

وما فعلُ المجنون؟ هو ذلك الجولان لطلب المشايخ وأخذ الأوراد عمَّن كُوشِف له أنهم ليسوا بمُحَقِّقِين علي استحقارهم فإن الأمور نسبية فليس التحقيق عنده كالتحقيق في حق غيره لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين فالتحقيق عند الكُمَّل لا يتم إلا بالتحقق فيشمل أنواع اليقين الثلاثة علمُه وعينه وحقُّه فلم يكمل في نظره إلا من يتلقَّى الأمر عن المدلول عليه لا بواسطة وهو إمام المتقين صلي الله عليه وسلم ففي الأبيات المتقدمة الإقرار بالعجز ورفعُ الشكوى إلي الله والانتصار به علي أعدائه والاستغناءِ بربه عن غيره وقوله: {يا مغنيا جودُه يأتي بمضنون} يشير إلي ما لا يطَّلِعُ عليه إلا الله ورسولُه أما لغيرةٍ عليه أو لعزته فاختطفتْه يدُ القدرة من بين أولئك الذين كان يطمَع فيهم وقد عرضوا عليه كلَّ ما عندهم فلم يبق إلا الاستيلاء علي الجملة والتقَدُّمُ إلي ما لم يزل في هيئة المكنون وليس في طوق غيره تعالي ورسوله صلي الله عليه وسلم التمكينُ منه فغنِيَ به واستغنى وغنِيَ بمحامده وبشكوره اقتنى فشاهده تعالي في كل أمر فكفاه وكيلا في الحركات والسكنات فظهر بالشكر أيضا بتعداد [40] الآلاء حين اقتناه القلب مُلكًا والجوارح عملا والإخلاص حالا من حفظ اللسان والقلم فقال رضي الله تعالي عنه وعنا به:

نجوتُ من فتن الأعداء إذ قصدوني بالمدافــع طــرا والسكاكيـــن

*

هذا في مشاهدة الأوصاف وبساط المحبة فإن العطاء من الحبيب تستعظمه النفس ويستحليه الذوقُ فقال رضي الله عنه:

رجع رضي الله عنه من مشاهدة الأوصاف إلي الطمع والتذلل للعزيز الحبيب الكريم وقال الصُّوفِيَّة: إن حسن الذل للعزيز كحسن الذل للحبيب وقُبْحِ الذُّلِّ للذليل كقبح الذل للعَدُوِّ فطمِعَ رضي الله عنه في مواهب حبيبه الجواد تقرُّبًا إليه تعالي ففي الحديث {من لم يسأل الله يغضبْ عليه} أو ما في معناه علي أنه اقتنى الشكر في المنع والعطاء وهذا هو ميزان من أراد أن يعرف بين الطلب والشكوَى تقرُّبًا واغتباطا بمشاهدة الكرم وبين الطلب رغبة في النفس ومصالحها فإن المتقرِّب يشكر ويرضى في المنع والعطاء حقيقة لا تكلُّفا قال رضي الله عنه في غير النونية:

*

*

فإن تقديم الرضي علي الصبر تعبير لك أن الصبر هنا ليس هو المقام لأن الرضي يشمل الصبر وما فوقه

فالصبر يرجع إلي معناه اللغويّ وهو الحبس والسكون يعني في مقام الرضي بالقضاء صابر أي ساكن لا يسخط ولا يتَبَرَّم ولا يتزحزح وهو المُعَبَّرُ عنه عند الصوفيَّة بحال الصبر في مقام الرضي وقال رضي الله عنه:

*

*

*

*

*

*

*

إلي آخرها.
وأول القصيدة:

*

*

فقوله {نويت} إلي آخر الأبيات من نفائس مكنونات مناجاته [42] كغيرها ولقد كان يقول هذه الصناديق امتلأت من مناجاتي بلفظي وقلمي وليس فيها حرفٌ واحد إلا في الله ورسوله وقد بشَّرني الله بأنه تقبلها قبولا يغبطني فيه غيري وإنها لمِمَّا يباهي الله به ملائكته وأن رسول الله صلي الله عليه وسلم عليه ويباهي بها غيره من الأنبياء والمرسلين من فضل أمته صلي الله عليه وسلم علي الأمم وكان يقول إنه لا يحتاج إلي أن يراها بشرٌ وقد قبلها الله ورسوله وأشهدَ به ملائكتَه بالملإ الأعلى وعن هذا عبَّرَ في إحدى قصائده النِّهائية فقال:

*

وكذلك لم يَرَ أكثرها أحدٌ إلا بعده وتلك المواهب الكثيرة من دوام مزيده تعالي للشكور من عباده المخلصين قال في {القوت} والشَّكور في نهاية المزيد وهو الذي يكثر شُكره علي القليل من العطاء ويتكرر منه الشكر والثناء علي الواحد من النِّعَم وهذا خُلُقٌ من أخلاق الرَّبُوبية لأنه سمَّاه باسم من أسمائه والمَزيد هو المنعِم يجعله ما شاء فأفضل المَزيد حُسْنُ اليقين ومُشاهدةُ الأوصاف فهذا الذي وصف به الشَّكور هو ما عاش عليه {شيخنا

رضي الله عنه} في معاملته ربَّه جل وعلا ثم قال من الطلب:[43]

*

طلب منه تعالي بترغيبه في المَزيد للشاكر وقد شكر أن يَمُدَّ حياته علي شكره قال تعالي {وإن تشكروا يرضهُ لكم} وأن يديم له أمداد قلبه باليقين والتمكّن فطلباته لا تَخرُج عما يُرقِّيه في مقام الزلفى عند ربه أما ما يرجع لحظِّ نفسه لنفسه فلا فإن النفس هي ما انسلخ من دعواها وسلمها لمالكها فوجدها محض عبودية علي فطرها الأولى قال تعالي وقوله الحق {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون} وقال {وأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم} ثم قال في مقام الشكر وحال الهيبة والإنس بالرجوع بكليته وكل شيء إلي العبودية الحقة:

*

*

*

*

*

[44]

*

*

*

فقوله {لك انصرافي} البيت فيع الشُّكر العَمَلِيُّ وهو القيام بالسنة مع الترتيل قال تعالي مخاطبا لحبيبه صلي الله عليه وسلم {ورتل القرآن ترتيلا} ولقد شهدتُ له وشهد له كلُّ من لازمه أنه كان القيام به في الدياجي دأبه وديدنه وكانت قراءته والناس نِيام تشغُفُ القلبَ وتُخرِج العواطف وتحرك من الأشواق ما كان ساكنا وكان عملُه في الليل والنهار دِيمَة وكان امتداح رسول الله صلي الله عليه وسلم لذَّتُه وأنسه وبسطُه والصلاة عليه أوكد النوافل عليه بعد الرواتب وسُنَّة الليل وناشئته قال وقد صدق في المقال:

*

*

*

*

[45]

هذه الحال في مقام الشكر هي حال الاغتباط بمواهب الكريم وفيه أعظم دلالة علي عظم الإسلام عنده رضي الله عنه وفيه تعداد النعم وتكرارها المؤذن بعدم الغفلة عن صغيرها وكبيرها فصلاته في هذا الموضع صلاةُ مُنجِزٍ ما التزم بلا بُطْلٍ يري ربَّه في عمله لا نفسَه فخَصَّ من بين الأسماء الكريمةِ البرَّ الرحيمَ مُضافا إليهما الصلاةُ علي ذلك السيِّد الذي لم يرَ اللهَ ونِعَمَه إلا به وبيده فأفرد له نصيبَه من الشكر وهو الإقرار بكرمه والثناء عليه بلسانه فذكره بجميع أفعاله معه إجلالا له وتنويهًا به فقال {علي الذي قد كفاني كلَّ تخمين} فآذن بهذه العِبارة أن المزيد هنا أوله حسنُ اليقين قال صاحب القوت: فأفضل المَزيد حُسنُ اليقين ومُشاهدَةُ الأوصاف وما أوضح هذين في هذه الأبيات فبشهوده أوصاف الرَّبِّ ذكره باسم البَرّ والرحيم اعترافا منه بانتفاء أثره في

أعماله الجليلة وأن كل ذلك من سابق عناية الرحيم وتوفيق البَرّ وبشهوده أوصاف الخلق الكامل صلي الله عليه وسلم نعَتَه بالبيت التالي {أعلي البرية عند الله منزلة} إلخ فقوله {كفاني كل تخمين} وقوله {من ببشر جآ وتخمين} لم يُبقِ شاكًّا في مشاهدة الأوصاف من مظاهر الحجاب الأعظم عليه السلامان كما أفاد بتتابع المَزيدات بعد حُسن اليقين من البشر والأمان [46] ثم هو الآن يشرع في استئناف العمل شكرا علي المزيد الجديد شكر القلب من الأنس والاعتراف وقال رضي الله عنه:

*

هذا بيان لاستحقاره جميعَ أعماله وأقواله بجانب ما في نيته أن يُواجَهَ به بتلك المواهب العظام من الشكر اللائق به استعظاما لجانب المولى وما أسدى إليه من الأيادي الفِخام من غير سبب فتحقق في مقام الرجاء أنَّ كرم مولاه أكبر من أن يُكافئ عنه نفسَه بنفسه من باب تلاشي الكل وفنائه في بقائه وقيُّومِيته تعالي كأنه يقول إن ما قمتُ به من الشكر واستغراق جميع أقوالي وأعمالي واصطلام قلبي وجوارحي كلُّ ذلك لاشيء عندي بجانبي ما أوليتني من نِعَمِك لأنها منك والقائم بالمكافأة أيضا خَلْقُك وكل ما يصرِفُه في شكرك ما هو إلا من أنعُمِك ولا أرجو إلا إياك في القيام بحق الشكر كما لم أرج ابتداءً غيرَك في الاجتداء هذا هو حقيقة الفناء والبقاءِ ثم شرع يُعَدِّدُ النِّعَم ويذكر الآلاءَ فقال رضي الله عنه:

*

[47]

*

*

ثم أخذ يستأنف الشكر علي الوعد الصادق في المستقبل وقد نزل عنده منزلة الواقع شأنَ أئمة أهل اليقين مع وعد مالكهم القائل: {إن الله لا يخلف الميعاد} فقال رضي الله عنه:

*

*

*

بيَّن بهذه الأبيات مبلغ إيقانه بما يُساق إليه من الرحمة التي هي القصد في بعث سيد الوجود وقوله من الحين

يريد إلي الأبد ثم خضع لذُلِّ العبودية عن خطاب المباسطة والاغتباط فقال: {أرجو برحمته} البيت أما أنه علي يقين من صدق رجائه ولكن الأدب اقتضى ذلك لتنوُّع المشاهدات من الفرق الثاني مشاهدةَ أوصاف الرب فيعتزَّ بعِزَّته وملاحظته ذُلَّ العبد فيَخنعَ وراء حجاب المخالفة من استيلاء خشية الإجلال فرجاؤه لزور مدينته الحقيقة مُحَقَّقٌ وهي دار السلام عند الله تعالي المُبَيَّن [48] بقوله: {دار الحق والدين} وإن كانت المدينة يثرب مدينتُه وهي دار الحق والدين وقد حصلت أيضا زيارتها طيًّا كما قال:

*

وفسَّر الرجاء بقوله:

*

فظهر لك أن كل ما يُرجَى من الخير هو ضمن خيئه الذي هو الوفاء بشروط العبودة لمستحقها والترشُّح لقبول الرب إياه بكرمه وبشراه الأبدي ثم وافته هنا داعية الشكر علي المزيد المتجدد من حسن اليقين وإنجاز المواعيد فلبَّاها فقال:

*

نويت شكرك في ذا اليوم يا صمدي يا اللـه ذا العيـن قبـل الـراء والشين قوله {ذا العرش} إلخ توحيد عال في أن عِلمَه تعالي شامل للكليات والجُزئيات فإن العين هي الحقيقة وحقيقة الكون تقديره تعالي للأمور كيفا

وكَمًّا في علمه السابق قبل بروزه للوجود فكان وجوده غير شيء زائد علي عينه في تقديره الأزلي إنما التركيب [49] والترتيب بأجناسه وأنواعه وفصوله وأجزائه وجواهره خلق جديد في دار المخلوقات وفي علمه تعالي شيء واحد فقوله {قبل الراء والشين} يشير إلي معنى الكل والجزء كأنه يقول يا ذا الخلق قبل خلقهم ولكن هذا رمز من رموزه لا المعنى الجلِيّ فإن ذلك هو العرش وهو تعالي رب العرش العظيم فكأنه أظهر بهذه العبارة في هذا البيت أن كل ما قام به من الأعمال والأقوال للشكر فلا يفي بأدنى جزءٍ مما يجب عليه له تعالي فحكم بعجزه وتمسك بقدرته فقوله {نويت شكرك في ذا اليوم يا صمدي} الصمد هو المفتقر إليه كل ما عداه ومن سواه والمستغني بنفسه عن غيره فكيف نشكرك إذا والكل منك ولك علي حد قول موسى عليه السلام فكيف أشكرك إلخ ثم جاء بالاسم العَلم أعرف المعارف {يا الله ذا العين} إلخ فكان اعترافه في أول القصيدة بعجزه عن القيام بالشكر المفهوم من قوله {رمنا} كما قدَّمنا مُلتَئِمًا مع إقراره في هذا المحل بأن ليس له إلا النية وما أعجب هذا رجل أفنى عمره بأداء الشكر ثم لم ير كل ذلك إلا كلا شيءَ من عظم مشاهدته المنعِم وعظمته في جميع لنعم ثم شرع يسرُد القصيدة حين فوض إليه سبحانه أن يشكر له نفسه وعوَّل عليه في استدامته كما يرضى في الدعاء الذي هو العبادة لتحققه بالعبودية ميراثه الأثري صلي الله عليه وسلم وبه [50] تكمُل القصيدة وقد أدمج فيها الشكور في كل ملاحظة وهاك سردُها تبرُّكا بها:

*

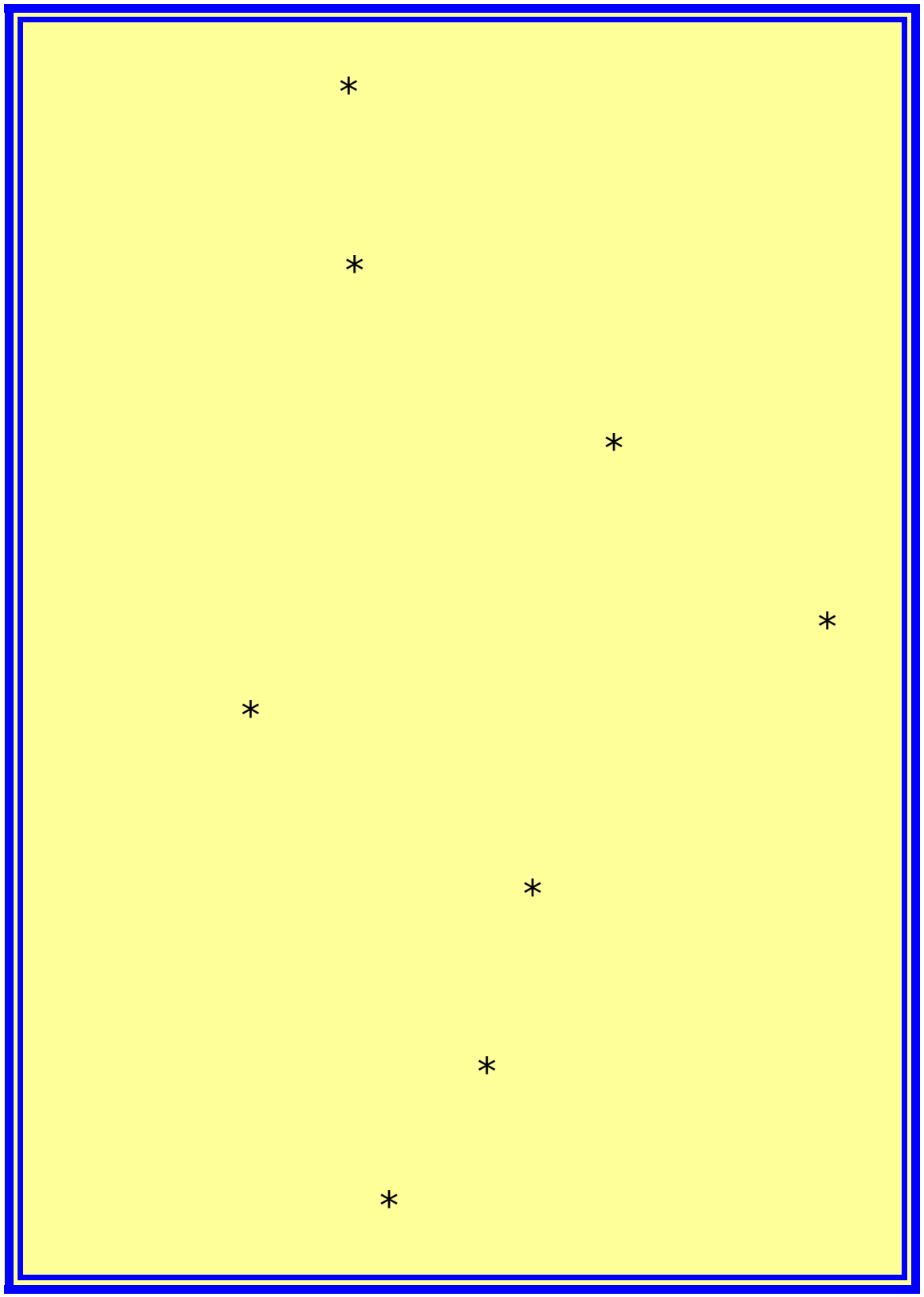

*

*

*

*

*

*

*

*

*

*

*

*

*

*

فهكذا كما تراه رضي الله عنه يدوم علي ذكر ربه فيشكره ويداوم علي ذكر آلائه فيُثني عليه وخير شاهد للمرء قرائنُ أحواله وقد ألَمَمْتُ بقليل من كثير من آثاره في مواطن البلاء والرخاء فأجمل الصبر وأحسن الشكر وما تَرْجَمَ عن لسان الحال كلسان المقال وما أفصح عن حقيقة الرجال كالامتحان في مختلف الأحوال {شعر}

*

فهو رضي الله عنه أشهر الناس دلائل اختيار الله له قال بعض الحكماء ومنهم من شهدت عليه دلائل الاختيار ومنهم من خفيت فيه فلنا إذًا القطعُ فيمن ظهرت عليه ولا قطع في غيره فنقطع في اختيار الله له حيث نُحسِن الظنَّ بمن لم يبلغ مبلغه فهو أشهر وأحمد حياةً وأحسن ذِكرًا رضي الله عنه لجمعِه ما عند الجماعة [52] فَفَضَلَهم بضمِّه ما فضَلَ به بعضُهم علي بعض ولو لم يكن هناك أمر زائد فهو أفضل من كل واحد علي حِدَته لتفَوُّقِه عليه فيما امتاز به فلا بُدَّ أن يَسُودهم قال صلي الله عليه وسلم في سيدِنا أبي بكر {فَضَلَ أبو بكر الجماعةَ باجتماع فضائلهم فيه ثم بشيء وقر في صدره} فكذلك {شيخُنا} يقطع له البرهان بالتفوُّق علي الأمة بعد الصحابة رضي الله عنهم بعد بُلوغه نهايةَ كلِّ أحد في بابه بالتخصيص بالخدمة مقام العُبودية وهاك نظما آخرَ من تَرَاجِمِ درجاته في مقام الشكر بقلمه حين لا يحسب لعلم الغير حِسابا بل إنما هو إقرار خاص عند ربه بشهادة رسوله عليه صلوات الله وسلامه وحيدا فريدا من بين البشر وقد فجأه البرُّ اللطِيف ببُشْرَى الآية {وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض} مُبرزًا بعضَ مُفَصَّلاتها ليُثنِيَ عليها فلا تتجَدَّدُ نعمةٌ إلا ويُجَدِّدُ لها شكرا يناسبها ليلا ينفك متقرِّبًا حتى في قربه فلا يزال مُرْتقِيًا لما يُطالعه المولى به جل جلاله في خزائن مزيده التي لا تنفك بسابق عِنايته تعالي به وسَبْقِ حُسْناه منه عز وجل قال رضي الله تعالي عنه وعنا به:

*

*

*

*

وجَّه وجهه إليه تعالي متحققا بالعبودية قائما بشهادة التوحيد الخاص رامزا إلي ما أبدع له مما لم يسبق فيه بشر ولم يجر عليه أثر مما اختص بعلمه تعالي دون المخلوقين ولم يطلع عليه مقرَّبٌ إلا الرسول المصطفى عليه صلوات الله وسلامه فقال {أشكره} وهو جملة في موضع حال من التوجُّه يعني والله أعلم أن هذا التوجُّه توجُّهُ شكرٍ قامت به كليتُه لأن وجه الشيء حقيقته وهي الكلية لأداء ما ترتب عليه من حقوق الشكر لهذه المواهب البديعة التي أنشأت من عدمٍ بكن فيكون من تعلق القدرة بالإرادة جزاء من الله تعالي من انتفاعه هو بالعمل بالقرآن الناتج له من حسن اتباع ما جاء به النبي صلي الله عليه وسلم فأثمر له حُسن اليقين والتحَقُّقَ به في نفسه ونفعه الخلقَ بظهور دلالته علي الله تعالي بمقاله وحاله وسِرّه وعلانيته فاستقرَّ انتفاعه هو كلَّ الانتفاع بهذا النفع الذي كان يعم الناس واختصَّ به السعداء من بينهم حسب ما سبق لكل من الحُسنى من الله الكريم {وما يلقيها إلا الذين صبروا وما يلقيها إلا ذو حظ عظيم} فشكره هذا رضي الله عنه [54] في هذا المقام يشمل الشكر علي البلاء أينما وقع وحيثما وقع لما فيه من المبالاة ولما يتعقَّبُه من الأجر الوافي ويتخصَّصُ بالشكر علي هذا الحظ العظيم السابق ممن {يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم} أكرمه تعالي بعموم نفعه الناسَ خصُوصًا وعُمُوما فقد كانت أيام دهره أيام أعياد وأعراس لأهل الدين لظهوره بنصرته وأحبَّائه في قومه وفي شمول

بركته لهم في علومهم وأعمالهم وأرزاقهم ومعايشهم حتى يصح أن يُقال إن أدنى مُنتسِب إليه يَقرُب من أعلي منتسب إلي غيره في آداب السلوك وحسن اليقين وسخاوة النفوس وكذلك عُمُومُه لأهل الدنيا من أهل قِطره لكثرة ما تسْتنتِجُه أيدي العُمَّال من نشاطهم الناشئ عن حرص قومه علي الإيثار والإنفاق وعُمُوم نفعه علي الدنيا جمعاء وبما ظهر من آثار بركة دعائه لعامة المؤمنين في أي أرض وفي كل زمن فما ظهر تفسير الآية بمظهر أجلى مما اشتملت عليه بِشْرَتُه المباركة وأديمه المنوَّرُ فإذا كان ختم الولاية المحمدية يصحُّ لأحد قبل انقراض الطائفة الأخيرة من الطوائف الظاهرين علي الحق الثابت بنص الحديث الصحيح لا استَحَقَّ أن يكونه دون غيره ولكنما لا نحجر واسعا {ورحمته وسعت كل شيء} [55] وإطلاقات أهل المعرفة تحتمل كثيرا من التقييدات والتخصيصات فلا نقطع ولسنا في حاجة إلي المشاحة في أن يكونه أولا يكونه لأنه لا يجب أن يكون خاتم الأولياء أفضلَهم فإن القاطع في كونه صلي الله عليه وسلم أفضل الأنبياء ليس بمحصور في كونه خاتمهم وإن كان ذلك من مزاياه صلي الله عليه وسلم فالنصوص الصحيحة الصريحة في تفضيله واردة معه أما أن المعاني التي تليق بالخاتم للولاية المحمدية أوضح في {شيخنا رضي الله عنه} من غيره وأجلها النصح لعامة المسلمين سرا وعلانية وارتفاع قدره وإنافة درجته علي جميع معاصريه بلا سبب إلا إعلاء كلمة الله وصيانة الدين وإظهار السنة والذبِّ عنها والقيام بها ونصره لمن تقدمه وحفظه لحرمتهم وشمول دعائه لمن يأتي ومحاجاته عن الجميع وذلك لمن شاهده لا يحتاج إلي برهان لما يقوم من القرائن من إرشاده وإسعافه الذي لا يخص به أحدا دون

غيره علي قيادة الشرع الحق وأما لمن لم يعرفه ففي أدعيته في الخلوات ومناجاته في الظلمات قال في هذا المعنى أخونا {عبد الودود بن سِيدِ عبد الله الأيْبِيرِيُّ} من جملة أبيات:

*

[56]

وقد جَرَّ القلمُ إلي ذكر الختم وما ذكرت من يقول به وإلا فالمسلم في غِنًى عن التفكر فيه أصلا فضلا عن الإثبات والنفي أما أنا فمعرفتي لمن أكتب عنه وما أراني الله فيه وأدينه به أنه ما قام بحق العبودية لله تعالي بتوحيده وشكره جل جلاله وحقّ الخدمة للرسول صلي الله عليه وسلم اتباعا وثناء وصلاة عليه وإحياء لسنته وعملا بالقرآن وإكرامه والاستقامة عليه والعبادة به وترتيله والتربية بالقيام به والترقية بتدبُّره وتقريب علومه للأفهام ولا قياما بحق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والصحابةِ عليهم الرضوان بعدهم مثله رضي الله عنه فهذا هو اعتقادي ومن معي ومن يُقلِّدُني ولا ألزِمُ أحدا شيئا والعلم عند الله تعالي فقوله رضي الله عنه {أشكره من بعد حمد حسن} البيت فتقديمه للحمد علي الشكر إيضاح للأحديَّة فالحمد هو ذِكر محاسن المُحسن لتقررها عندك ولا يستحقه حقيقة إلا الله والشكر ذكر إحسانه إليك فهو أخص فشكره تعالي واجب علي كل أحد لأنه أحسن إلي الكل وإنما يتفاوتون في معرفة النعمة وإدراك تفاصيلها وكونه أخص لمطلبه أدرك النعم فاختص به أهل المعرفة والتوحيد علي تفاوتهم فيه فتقديم الحمد علي الشكر تقديس ثم [57] اعتراف فصلى علي النبي صلي الله عليه وسلم مصليا

به وهو الذي يلي المُجَلي في سُبَّاق الخيل فهو رضي الله عنه يبدأ بتقديسه ويصلي بذكره عليه صلوات وسلامه فيصلي لقيام أولويته في نفسه به وبالكل من أنفسهم ثم يذكر نعمه عليه ونعم ربه فقال {محمد وسيلتي في قطني ــ وظعني ومنزلي ووطني} قال وسيلتي دفعا للوهم في حصول شيء لأحد ولو هو في مقام الزلفى إلا به صلي الله عليه وسلم ثم ذكر اختصاصه به من باب الأكثرية بقوله {في وطني} وهو حضرة اليقين في مراتب الإيمان فإن من لم ترسخ قدمه فيه فلا مطمع له في مقاماته وقال {وظعني} يعني سيرُه إلي الله في مراحل المقامات التسع فالظعن بالسكون وبالفتح مصدر ظعَنَ أي سار {ومنزلي} يعني في كل مقام دخلته {ووطني} في وصولي إلي الله تعالي وانتهاء سيري إليه تعالي يريد أنه لم يزل منذ استقر به اليقين متبعا السنة في جميع طريقه مُجانِبًا البِدَعَ حَذرًا من بَنيَّات الطريق وقد أكرمه الله بحبه له محبَّة خاصَّة اختاره من أجلها للاختصاص بخدمة نبيه المجتبى عليه صلاة الله وسلامه والذبّ عن سنته فاستخلصه لنفسه فامتاز عن غير صحابته فألزم حُرمتهم ونوَّه بهم وخدمهم في مآثرهم [58] فعَدُّه من أنفسهم ففات حظَّه غيرَه من ذوي الاختصاص رضي الله عنهم وعنه وأرضاه عنا فقال:

*

يُثني عليه صلي الله عليه وسلم بما آتاه الله من النصر علي الأعداء وتدميره تعالي لهم بيده فأباد الأشقياء وأفاد الأذكياء فقال {مبيد} بلفظ اسم الفاعل الصالح للماضي والحال والاستقبال فإنه صلي الله عليه وسلم لم يزل حيا في قبره حيا في تصرُّفه عند جميع أهل

المعرفة وجمهور العلماء والله مُنجِزٌ له وعدَه بنصره فلن يزالَ ناصِرُه ومن نصره وهو القوي العزيز وقال {للأكرم الذي} الشطر نعَتَ الأكرم بالصلة لزيادة تقرير الغرَضِ المَسُوفِ له الكلامُ وهو استحقاق المشركين للإبادة من أجل الغباوة والعناد في جحد ما هو ظاهر للعيان وهو كرم المولى الذي أوجدهم ثم الإنعام بالنعم المتنوعة فمن جحد هذا ظلما وعُلوًّا حقُّه الإبادة وفي ذكره تعالي بنعمته الذي هو الأكرم تعريضٌ لأنه لازم من معنى مُعانده اللؤمُ وتقريره أن الكريم من يُكرم مولاه والأكرم هو الزائد علي ذلك مع القدرة عليه وذلك ظاهر في إذ سرت إليه وحيدا ضعيفا كما قال فقيرا غريبا عند {كَلْوَى [59] وبَافَل} بين أيدي سفهاء جبَّارين طغاة باغين فآواني تبارك وتعالي إليه ونصرني علي أعدائي ورزقني من الطيبات ووطأني رقبة كلِّ معاند وصرع عني كل مكابد ولا سبب لي إلا ذكره وشكره والتوكل عليه في حال اجتماع آلات الجِلاد لديكم فما أغنى عنكم جمعُكم ولا عُدَّتُكم شيئا حتى ظهرت عليكم ظهور الشمس لكل ذي بصر وجرَفَتْ عليكم سيولُ فيوضه عليَّ تعالي فصار الباغي ذليلا أليس من ظهر له هذا عِيانا فتغابَى عنه أهلا لأن يُداس بالأقدام ويُحكمَ عليه بالإعدام من أجل ذلك فنصره تبارك وتعالي إياه برسوله صلي الله عليه وسلم خيرُ آية تدل علي ما بيَّنه لنا الكتاب العزيز من إيجاد انتصاراته صلي الله عليه وسلم ومن معه علي المشركين بنصره قال تعالي {واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون} بلي ربنا شكروك علي الدوام ودُمتَ لهم علي الزيد أبد الآباد وها نحن شهداء لعبدك المرتضى خديم نبيك المصطفى عليه السلامان أنه مُعِيدٌ

أيامهم ومُعَبِّدٌ مَنهَجَهُم فعُدتَ عليه بعائد كرمك فقام بشكرك وذكرك مستقيما علي ذلك بعينه ومستديما عليه بأثره فانيا فيك عن العين [60] والأثر باقيا بك في العيان والخبر ثم قال رضي الله تعالي عنه

*

يحمده تبارك وتعالي بما جاد له به فضلا لا مكافأة إلا أن يشاء من كرمه تعالي وهو وطنه الذي هو مقام المحبة الحاصلة حيث غاب به عن الأكوان وتفضَّل عليها بإبقائه فيها مصرفا إياه علي حدود الشريعة ووظائف مطالبها ليكون آية يُستدل بها علي عظم مواقعها عند مشرعها وقوله {وصفى عطني} وهو موضع الإقامة تقول العرب: ضرب الناسُ بعَطَن وذلك حيث تصدر الإبل عن الماء بعد النهل والعَلِّ وهو العبادة العليا التي هي معطِن الملأ الأعلى أي مقاماتها كالأنبياء والمرسلين وقليل من غيرهم في كل عصر وصفاؤُه يُراد به صفاء المقيم لا المُقام فإنه صاف بالذات وهو كونه لم يتدنس قط في جميع سره بالمعصية رأسا ولوَّح عليه بتلألإ البيت وهو:

*

يريد أنه لما ترقى إليه بالقرآن وهو الدين الحق الذي هو العروة الوثقى قال في الصحيح{إن صاحب القرآن يُقال له [61] ارقِ ورتِّلْ كما كنت ترتل في الدنيا فذاك عُرُوجُ جزاء وهذا عروج ارتقاء فهو غائب في مولاه بمعيته اللائقة بحقيقة الحق عز وجل فقوله {مسكت بالذكر الحكيم} البيت يريد غائب في حقيقة الحق الذي هو مطلب الإيمان والإسلام والإحسان حاضر بحقيقته وبعبارة أخرى كائن عند ربه بحقائق الدين حاضر مع

الخلق بحقوقه إذ حُفظت عليه حركاتُه وسكناته فاستقام علي الصراط المستقيم الذي هو نهاية الآمال ظاهرا وباطنا قال:

*

قوله {يعلي مننى} إشارة إلي أن ذلك الحفظ ما هو إلا لتستديم الزيادةُ علي الحسنى لاستقامته واستدامته شكره عليها وعلي شكوره المتنوعة بتنوع تجدد النعم قال:

*

يُوضِّح أنه لا يفتأ يشكر بالعبادة لا باللهو والبطالة ومستمر علي ذلك إلي دخول الجنة وقوله {كلي} يشمل عينه في الحياة الأولى وأثره في الآخرة وقوله {وصفى ديدني} هو [62] نهاية الموهبة والكرامات وهو أعلي مكارم الأخلاق وأعظمها وبيانها واضح في قوله تعالي يمدح أكرم الخلق عليه وأعزهم {وإنك لعلي خلق عظيم} وتلك كرامة في مقام الوراثة لم يبلغ أحد مبلغ {شيخنا رضي الله عنه} منها وماَ أظن أن يُكابر أحد ممن شاهدوه في ذلك فإن البيان حُجَّةٌ في التجربة والامتحان قال رضي الله عنه:

*

*

*

قال {ناجيته} معربا عن حاله الراهنة كأنه يقول ناجيته والحال أنه عند مناجاتي له قاد لي بالرسن فيضا وفتحا

قد أزالا وَسَنِي وهو حب الميْل إلي غير الله تعالي فإن نسيانه تعالي موتٌ والاهتمام بغيره نومٌ والتفكر في حب الميل إلي ذلك الغير وسَنٌ والشأن دوام المشاهدة وهو صفاء الأنفاس حين لا شِرْكة للرب فيها فهو سرمدا حيٌّ يقظان وهو منتهى مقام الشكر وحال عظيم من المحبة الخاصة المُظهَرة بقوله {فجأني بما أزال محني} البيت والحال مواهب تفجأ العبدَ في مقامه إذا استكمله لترقيه إلي أعلي وقد ظهر بمواهب مُبهَمَةٍ [63] فسَّرها بذكر أضدادها وهي الولاية التي هي ضدُّ المحنة والإنس ضدُّ الغربة والتمكين ضِدُّ الحيرة والصواب ضِدُّ اللحن والأمان ضد الكرب والبُشرَى ضد الحُزْن وهذه نالها من حسن مُجازات مولاه له إذ أجمل في الصبر وأحسن في الشكر وقوله {وذكره الحكيم صار مخزني} أفصح عن منتهى السير وهو اكتمال الاستيلاء علي الميراث قال تعالي {ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير} وآية نيل الميراث أن يتحقق الشخص بجميع الأوصاف الممدوحة في الكتاب ويستقيم علي امتثال أوامره واجتناب مناهيه فيستحِقَّ وراثته صلي الله عليه وسلم إذ كان خلقه القرآن ومن مناقبه أن يدوم له الحفظ بما حفظ به القرآنَ ويُعصَم بما عُصِمَ به رسول الله صلي الله عليه وسلم ويكون من أهل الله بين جميع عباده قال صلي الله عليه وسلم {أهل القرآن أهل الله} فصيرورة الذكر الحكيم مَخْزَنُه تتضمَّنُ جميعَ المقامات والمواهب قال في غير هذه الأرجوزية:

*

*

*

[64]

هذا هو حقيقة التحقق بالشيء فقوله {لم يكن لغيري} ليس من باب أن كل ولي له مشرب خاص به لا يعلمه غيره فقط بل وبالفعل أيضا من باب الأكثرية والمفاضلة فإنه يفضل الجميع بأكثرية ما خدم به القرآن فإنه لو بلغ أحد مبلغه لأثِرَ ولم يؤثر فلم يكن أين من وقفت علي أنه لا يفتر آناء الليل وأطراف النهار تاليا أو متدبرا أو منوّها به وأين من وقفت علي أنه يُقيم رجالا يربيهم بتلاَوة القرآن في أوقات النهار وختمات في الليل بما مر لفظه في باب الصبر وفي فصل السهَر وسيأتي بعضه إن شاء الله في الباب الجامع في آخر الكتاب وأين من وقفت علي أنه يصرف جل ماله أجرة للكُتَّاب وتبشيرا للمزبّرين به وأين من وقفت علي أنه يقوم بمُؤَن مآت من الناس ليتفرَّغوا لإحياء القرآن بالتدريس والإقراء والتلاوة والكتابة ما ينيف علي أربعين سنة وأين من وقفت علي أنه يَغارُ علي مصحف أن يبيت بيد تاجر غير مسلم فيشتريه بلا مُمَاكَسَةٍ مغبونا في دراهمه غابنا في محامده يَصرفُ ألوفا وعشرات ألوف كل عام في جمع القرآن واستخراجه وإحيائه ولو فرضنا أن يساويه أحد في محبته وتعظيمه في قلبه فأين المقدُرة الموصوفة ولو كان لتضمنته التواريخ والتراجم فهو أكثرهم عملا بلا منازع وشهادةُ إخلاصه قائمة للعيان [65] بقرائن أحواله فهو إذًا أكثرهم ثوابا وأقربهم زلفى لزيادته عليهم في

النوافل قال في الحديث الرباني {لا يزال عبدي يتقرَّب إلي بالنوافل} إلخ الحديث وقال عليه السلام في صحيح مسلم {المؤمن القويُّ أحب إلي الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير احرص علي ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز} الحديث فهو لا شك يأتي ربَّه مسرعا وربُّه به إليه أسرع قال عنه تعالي في الصحيح {وإن أتاني يمشي أتيته هَرْوَلَة} الحديث ثم أنه لكماله في التلوين في مقام التمكين يوَفِّي لكل صفة من صفات مولاه حقها صفاتُ الجمال وصفات الجلال فلذلك ينبسط مع الأنس في مقامه حتى يظهُر مالكا في ولايته مما استولى عليه من مقام المحبة الخاصة ويسكن للهيبة في مقامها حتى يصير طفَيْلِيا وراء حجاب المخالفة شأن الأنبياء المرسلين قال تعالي عن كليمه ورسوله موسى عليه السلام {رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين} في مقام الهيبة ويقول عنه في الأنس والقرب {رب أرني أنظر إليك} فمن هذا تجد {شيخنا رضي الله عنه} يناجيه بشكوره وتعداد نعمه عليه حتى يتقرب من الافتخار والإدلال ثم يتقهقر إلي موقف التذلل والافتقار للهيبة حتى يصير يطلب كل شيء حتى أحقرَه كما تراه بعد أن قال {وذكره الحكيم صار مخزني} يقول تلوه:[66]

*

*

ثم طفق يستأنف من العبودية بناء الشكر أيضا بعد أن خضع لهيبة الجانب الأعلى فيقول رضي الله عنه:

*

*

*

*

قوله {فجأني} مفصِحٌ عن قبول مولانا له الأعمالَ من بدايته إلي نهايته فإن الدِّمَنَ هي ما انتقل منها من مراتب اليقين علما وعملا انتقل من مجرد المحبة التي جُبِلَ عليها للخير إلي العمل بموجبه ومن علمه عن لسان المُعَلِّمين إلي علم ذلك ذوقا وهو عِلمُ اليقين ومن الذوق إلي الكشف وهو عين اليقين ومنه إلي التحقّق وهو حقُّ اليقين فكان يُسَمِّي تلك الأعمالَ القلبية والبدنية التي جاوزها إلي ما هو خير منها وأعلي ذُنوبًا مرَّة وجُنونًا أخرى وسفاهة تارة وطورا جهلا فلما فجأه الحقُّ [67] بالبُشْرَى وبقبول كلِّ ما صدَرَ منه في سبيل مولاه أثنى عليه تعالي علي ذلك وذلك قوله {فجأني} وإن ذلك من أظهر ما ظهر من كرمه وفضله سبحانه فليس إذًا إلا القيامُ بشكره قولا وعملا فقال:

*

قوله {كلي} يريد القلب والجوارح فشكر القلب دوامُ التلذُّذ بذكره والثناء عليه بتعداد آلائه وذلك قائم الشهود

بأقواله وكتاباته واللسان ترجمان القلب وشكر الجوارح دوام العمل بالطاعات وشاهده علي ذلك إقامته للفرائض ومواظبتُه علي السُّنَنِ وأول من يودي شهادته المسجدُ وصفوفُه وشهر رمضان وقيامه والكتابُ وتلاوته والمالُ وإنفاقه وكان بعض الشهداء شهر الصيام شهر عيد له ويَعُدُّه خليلا حبيبا كأنه يتشخَّصُ أمامَه والحال في نفس الأمر قد يكون كذلك عند أولي البصائر فكان إذا دخل شعبانُ يُشَدِّدُ في المواعظ ويُكرِّرُ الزجْرَ عن اللهو واللعب لقومه ويُهيِّئُ فيهم التأهُّب للدخول في الشهر المبارك فكان لا يجلس مجلسا إلا ويذكر مكر إبليس وعائلتَه ويقول دوموا علي تفقد قلوبكم وحبس جوارحكم فإن العدو قد علم [68] باقتراب حبسه لأنه يُحبَس إذا دخل الشهر فهو يحرُص كل الحرص علي أن يُفسِدَ عليكم دينَكم وأن يبذُر في قلوبكم بذورَه لتنمو فيها فلا تتمكنوا من محوها واستئصالها لتصفوَ الأفئدة وتصلح لواردات المواهب فإن أبواب السماء تبقَى مفتوحة الشهرَ كله لترتفع الأدعية وتنزُلَ الإجابات الحَذَرَ الحَذر من العدوِّ فإنه مُشرِفٌ علي قلوبكم يترقَّبُ غفلاتها ليُلقِيَ فيها بذْرَ رذائله فبمثل هذه النصائح يُذكِّرُكم وكذلك يشغل أهل تربيته شغلا متواليا بالتلاوة لأهلها والخدمة لذويها والتعاليم في مجالسه للجميع حتى لا يكون لأحد فراغٌ للبطالة فيدخُلَ منه الشيطانُ قائدُ البَطَّالين ثُم أنه إذا استهلَّ الشهرُ يرضِي الناسَ بالإحسان فيه والاجتهاد في القربات والاجتماع لصلاة التراويح ويواصل إعانته للجميع من كل ما يحتاج إليه الصائم فالعامة يُطعمهم بغُرَر الجفان ثريدًا وأرزا وتمرا وسكرا موائدَ مبثوثة تجتمع عليها مئات من الغرباء وألوفٌ من الجيران أما سِقاية الفُطور كل ليلة فحَدِّثْ عنها ولا حرج تُملأ أحواضا عظيمة من ألذِّ الشراب

متفرغة لا يحجز عنها قريبٌ غريبا بل هي مُشاعَة بين المسلمين كل ليلة وقُدُور الشاه والقهوة منصوبة لا تخمد نيرانُها ما لم يحرُم الطعامُ من الفجر والخاصَّة وهم جماعاتٌ والضيوف وهم ثُباتٌ [69] يُرَتِّبُ لكل بانفراده أو بمن يناسبه فطورا معينا يأتيهم علي فرشهم أو يزيد في إكرامهم أن يناديهم فيحضروا معه وذلك ألذ عندهم من ألذ طعام وضِعاف العجائز يتفقدهن كما يقوم بأمور رؤساء القبائل والغلمانُ يُبشِّرُهم وذوي القربَى يُدنِيهم وأشياخ المريدين يُشاورهم ويُكرمهم والعلماء يرفعُهم فبالاختصار يُنزل جميع الناس منازلهم ويُرَقي هِمَمَهم جميعهم بلطف وتهذيب يحبب إليهم مولاهم ويُطيِّب عنده لوجهه تعالي مثواهم وكان من عزة شهر الصوم عليه أنه لم يُرَ قط فيه إلا متهللا ولا يحتجب إلا نادرا بل يخرج للعامَّة وقد يخص به للخاص وفي جميع مجالسه يشغُل يدَه البذلُ والإنفاق ولسانُه الشكر والتبشير لا ينتهر ولو أهل تربيته إنما يلاطفهم بالإرشاد ملاطفة علي أنه لا يقبل لأحد أن يشتغل بأمر ما من أمور الدنيا المباحة بل يَعْطِفُهم إلي الدينية المحضة ويقول إذا أريد لأمر ما من أمور العادة المباحة بلطف نعم ولكن يهون علي مريدِ حاجةٍ التريُّثُ لانقضاء هذا الشهر الكريم أو يقول نعم حتى يأتيَ شهرُ الفطر إن فهِمَ من مُحاولة المتكلم الالتواءَ للعادة أما بذْله فتستوي فيه الأيامُ والشهور إلا أنه في شهر رمضان أجود لأنه قد يشغُله من أنواع عبادته شاغل يكون أهمَّ في وقته من معاملة الخلق وفي هذا الشهر يُقدِّمُ الإنفاقَ [70] وأنواعُ البر علي غيره من النوافل وكان يشتغل بالقرآن والتكلُّم علي معانيه ويَشغُلُ أهلَ تربيته به شُغْلا مُضاعَفًا علي ما كانوا عليه من التلاوة والكتابة ولا تنس أنه إنما خصَّ الحافِظين لخدمة القرآن تلاوة كل يوم مرَّاتٍ خَتَمَاتٌ أو

انتساخ مصاحف أو نسخ مصحف كلٌّ بانفراده أو الجماعاتُ يشتركون فيه حتى بلغ جَدُّهم في ذلك وتمَرُّنُهم عليه أن يكتبوا مصحفا في أسبوع أو أقل ويكون علي غاية الجودة وصِحَّة الرَّسْمِ وفي جميع دهره أزيَدَ من أربعين سنة بيد أنه في هذا الشهر لا يترُكهُم يتنفَّسون من العمل بالقرآن وكان رضي الله عنه لا يفتُر عن قيام لياليه فهو يُصلي بأهله داخل الدار ما شاء الله أن يصلي وأقله ثلاث عشرة ركعة بعد أن يترك لأهل المسجد العام بعد صلاة العشاء من يقوم بهم ثم ينفرد بنفسه يتلو ويصلي علي النبي صلي الله عليه وسلم أو يكتب من مناجاته الربانية وهذا عامٌّ في جميع زمانه إنما يتضاعف الكلُّ في الشهر المبارك مع السرور والحبور وصلاتُه لأهله في مسجدهن الخاص داخل الدار معهن في ذلك أكثرُ نساء المريدين تبركا بإمامته يكنَّ في المسجد وهو في محراب يفصل بينه وبينهن حائل يسمعْنَ منه حركته وصوته ولا يرين شخصه وإنما تترجَّح قرُباتَه كلَّها قربة إحياء القرآن [71] والإنفاق والصدقة والبِرِّ والمعروف في أيام هذا الشهر وما ذاك إلا لمعنى عظيم من معاني حاله صلي الله عليه وسلم التي فهمتها عنه الصِّدِّيقيَّة رضي الله تعالي عنها وقد أثمر له هذا الصدقُ والتحقُّقُ في الإتباع منازلات عزيزة ولطائف كريمة ومواهب جليلة يُعرَف بعضُها مما يُعثَر عليه من مناجاته السِّيريَّة وأبكاره المخدَّرة وبعضها لا يظهر إلا يومَ تُبلى السَّرائر يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعَى نورُهم بين أيديهم وبأيمانهم وكان رضي الله عنه شديد الاعتناء بإمام التراويح والنظر لصحة حفظه وضبطه وإتقانه وإجادته التجويدَ وكان كثير التفقُّدِ له ولأحواله ومعيشته والرِّفقِ به ولا يستهلُّ شوالٌ إلا وحثَي له كن الأموال حَثْيًا يُغنيه عن الغير حياتَه ولا يحول عطاء اليوم

دون غد فظهر أيضا من هذين الأمرين اختصاصه بكمال ميراث مخدومه صلي الله عليه وسلم وهما تضاعُف جوده وتجدُّدِ إحيائه للكتاب العزيز إحياء شاملا لجميع أنواعه في نفسه وفي قومه ففي الصحيح من حديث عائشة رضي الله عنها أنه صلي الله عليه وسلم كان جبريلُ يُعارضُه القرآنَ في شهر رمضان وكان أجود بالخير فيه من الريح المُرسَلة بالمعنى وإليك أبياتا ترمُزُ لما أشرنا إليه من سَرَيان حقائق القرآن في كليته وفوزه [72] ببشاراته الفوزَ الأكبر بتلقين رسول الله صلي الله عليه وسلم فاهُ لفِيه رَطبًا من رب العالمين تلك التلاوة الخاصة في مقام الزُّلفى لعبدٍ مُقرَّب عند ربه عن استحقاق لخلوص عبوديته لربه وصدق خدمته لواسطته الوسيلة المصطفى عليه السلامان قال:

*

*

*

*

*

*

*

*

*

إلي آخرها
ومن بعض الظاهر قوله رضي الله عنه:

*

*

*

*

*

ومن لطائف هذه القصيدة التي منها هذه الأبيات ما وقع لمريد {شيخنا} العالم العلامة المؤلف الكبير المتقن

{عبد الله بن أيْئِيهْ الديماني} رحمة الله عليه أنه أتى لشيخنا رضي الله عنه وقال له إني رأيت الليلة قصيدة نشأتَها مؤسسة علي حروف {وكان حقا علينا نصر المؤمنين} تطلب فيها الفرَجَ عن المسلمين فيما وقع عليهم من الفتن الكبيرة وكانت الفتنة نشأت من تبدُّدِ نظام الأمراء في بلاد الصحراء الكبرى من دخول النصارى للتملُّكِ وقتال بعض الأمراء لبعضٍ ودخول رجل من المغرب باسم سلطانِ مُرَّاكُش يجمعهم علي قتال النصارى فكان من ذلك هَرَجٌ ومَرَجٌ ولما قصَّ العالم عبد الله رؤياه علي {شيخنا رضي الله عنه} قال الحاكي وهو الرائي تركني الشيخ ودخل الدار وأخرجها رطبة لم يدر هل قالها في اليوم قبل قصِّ الرؤيا عليه وهو الأشبه أو كتبها بعده وكلاهما خارق لأنه لم يكد يغيب عني إذ طلع بالقصيدة مبلولة وكان ذلك في شهر رمضان، ومن اللطائف تذكَّري لحال الرجل عبد الله بن أيْئِيهْ الذي كِدْتُ [74] أبخسُه حقه فإنه هو الذي اختاره لصلاة التراويح في المسجد لخبرته بالقرآن وله تأليف في علوم القرآن حسنٌ ثم بعد وفاته كان هو الإمام في جميعهن ثم قدَّم ابنَ عمه {السَّجَّاد} من قبيلة {تَامَكَلَهْ} وهو مثله في الحفظ وحسن التلاوة ولم يزل يصليها علي عادته بعد الشيخ إلي هذا العام جزاهم الله خيرا ورحِم السلف وبارك في الخلف فكأن الله تعالي يُظهِر لنا قبوله لخدمته هذا ونبَّهني علي غَفْلتي حتى عن مثل هذا العلامة الصالح الذي طال ما كان له عليَّ يدٌ فإن أول ما قرأتُ من علم الحساب الميقاتِيّ من تأليفه ومعي الآن شرح له علي منهج الزقَّاق في القواعد وكان مريدا صادقا {لشيخنا رضي الله عنه} ومُحِبًّ حقٌّ شكرَ الله سعيَه معه في الآخرة كما رزقه حُسنَ الصُّحبَة في الدنيا آمين ومن النتائج الظاهرة من المواهب المتجدّدة

في الشهر قوله رضي الله تعالي عنه وعنا به آمين يا رب العالمين:

*

*

*

*

*

*

[75]

*

ومما لم يظهر ما كنى عنه بقوله {ما شئت} وهذه الأعمال كلها بالقرآن وبمواقيت العبادة إنما هي عبادات خالصة لله تعالي من أصلها فأكسبه قبوله تعالي لها مواهب ومقاماتٍ جعلته لا يرى مِن تعبها إلا لذة يجب منها الشكر لتفضله تعالي عليه بالهداية له والإحسان فيها فهو لا يزال يزداد من الله تعالي عِلما به وكلما

ازداد علما يزداد في نفسه له خشية وإجلالا قال تعالي {إنما يخشى الله من عباد العلماء} وقال صلي الله عليه وسلم {إن أعلمَكم بالله وأخشاكم أنا} ومن تمَكُّن الخشية من القلب يكون الإخلاصُ في العبادة والإحسانُ في الخدمة فالأول يُكسِب الإخلاص قال تعالي حكاية عن المستثنى من الغاوين {إلا عبادك منهم المخلصين} وقال تعالي {إن عبادي ليس لك عليهم سلطان} فأهل الإخلاص هم عبيد الاختصاص وغيرهم عبيد المُلك والثاني يُكسِب المحبة قال تعالي {والله يحب المحسنين} فالمخلص مأمون مقرَّب والمحسن محبوب محفوظ فلم يبق للمتصف بهذه الصفات إلا استدامة ذلك والتمكُّنُ وسبيلهُ الشكر فقد قطع له بذلك مولاه الكريم فإنه قال عز من قائل {لئن شكرتم لأزيدنكم} وقال {ولدينا [76] مزيد} فللشاكر التمكن لأنه لازم من دوام المزيد فبهذا يتضح مزيد مشاهدة {شيخنا رضي الله عنه} ودوام مكاشفته من خزائن العلم اللدُنِيّ فإنه ما استوفَى أحد فنون الشكر كما استوفاها فإنه شكور في السرَّاء والضرَّاء كيف تراه يوم استهل عليه شهر رمضان في {مَايُنْبَ} تلك الجزيرةُ التي ليس فيها مسلم ولا من يُريد الإسلام غُرِّبَ فيها بعد إقبال الدنيا عليه بغتة ليس معه أنيس ولا من يشفَق عليه ولكن بين قُسَاةٍ يندَهِشون إذا رأوه يصلي وبعضهم يضحك لجهلهم بها والحكومة لا تُضمِر له خيرا ولا تكُفُّ عنه يدًا ألا تراه لما استهل الشهر انشرح وارتاحت نفسه بما استقبله من الأيام الفاضلة والليالي المعظمة خصوصا ليلةُ القدر التي هي خير من ألف شهر هامَ واهتزَّ وأنشأ ارتجالا:

*

إلي أن قال فيها

*

إلي أن قال في الرائية التي معها

*

[77]

وهما قصيدة واحدة لولا القافية لأن باعثهما واحد نعم انتفى كدَرُه لأنه استقبله الشهرُ مكاشَفًا له في ملكوت الله تعالي ومنازل عباده المخلصين وعظم ما ينازل به من المطالعات الخفية في أسرار القرآن ومصائر الأمور بيد الله ما تتصاغر معه تلك البحور والأمواج والسُّفن والأفواج والصُّخور والرِّمال والحكَّام والأقيال إلي حَدِّ العَدَم هكذا الرضى بالقضاء والشكر علي البلاء فكان جزاؤه في النهاية البيتَ المتقدم:

*

أترى الإكرام بكن فيكون يستحيل علي من أكرِم بهذه الخصال لا والله {إن رحمة الله قريب من المحسنين} {وما كان عطاء ربك محظورا} وإذا أدار الله أمرا هيَّأ له أسبابه كان رضي الله عنه يتعجب ويضحك من الدنيا إذ ذكر هذا الشهر الذي أتاه في {مايُنْبَ} ويقول كان يوم الفطر في العام الذي قبل هذا العام صلينا صلاة الفطر في فضاء واسع في طوبى {قلت} وكان زحام الناس وكثرتُهم وحرصُهم علي قُربه فائق الحَدِّ حتى كانوا يتدافعون تدافعا شديدا للاختصاص بفرش سَجَّادتِه فصلوْا ولا كاد يُسمعهم صوتا لكثرة الوفود [78] والزوار من كل ناحية {قال} ولم يأت عليَّ من قابل حتى

صليت في محل يعوزني في يوم العيد دجاجة أذبحُها وحين وقفتُ للصلاة نظرت لجهتي اليمين والشمال فما رأيت إنسانا يريد الصلاة إن هذا لعجب من أعجوبات الدهر {قال} ولَعَجَبِي من صُنع الله ولطفه أشد فإني نظرت في نفسي فلم أجد في قلبي فرقا بين الصلاتين، فإنه رضي الله عنه لا بذات الأَبَّهَةِ يفرح ولا لذات الغربة التائية يحزن ويتألم، وكان أسارَي الدنيا أعداء الذين يضحكون منه، {إن الذين أجرموا كانوا من الذين يضحكون} وهو يسخر منهم لاستدراج الله إياهم من حيث لا يعلمون {إن تسخر منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون} فإلي هذه الدرجة كان يشير بقوله: ربما يكون الطلب في حقي كفرانا إنما حقي دوام الشكر فما كان من الطلب بعد الوصول إلي هذه الدرجة إنما هو عبادة، {إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته} وتقرير كون دعائه عبادة إنه لا يطلب شيئا إلا ما اختار اللهُ له أن يطلبه ولا يختار له شيئا إلا وقد قضى له به تَكْرِمَة منه تعالي وإجابة له في غير ما موقف وإذا كان المطلوبُ معلومَ التنجيز مقطوعا به فما تمرُّغ الخَدِّ للطلب إلا استلذاذا بالعبودية وابتعادا من الدَّعْوَى فالانكسار والخضوع والتذلل حيلة العبد وجزاؤه الإجابة ومقتضاه الشكر والشكر [79] بعد الأخذ أو الوعد المقطوع به عبادة أخرى وجزاؤها الرضى {إن تشكروا يرضه لكم} ويشهد لهذا قوله في قصيدته:

*

*

*

*

*

إلي أن قال مستنجزا وعد مولاه الكريم للشاكر وقد أيقن بالإجابة لوفائه في أداء واجب الشكر لضل الله تعالي:

*

فلنمسك القلم هاهنا فإن شرح ما يتعلق به في هذا الباب يطول ولا يفنى ونسرُد بقية النونية ليأخذ منها من مر بها ما كاب الله له من الفهم وما رزقه من الذوق فيَطَّلِعَ منه علي ما يبلغه مَدَى بصيرته من تلك المواهب الإنهائية ثم نقرع بعدها باب الرجاء والخوف والزهد والرضى رزقناهم الله في الدنيا [80] والآخرة وخصنا بالرضوان الأكبر في جنة الفردوس وتتمة النونية هذه هي:

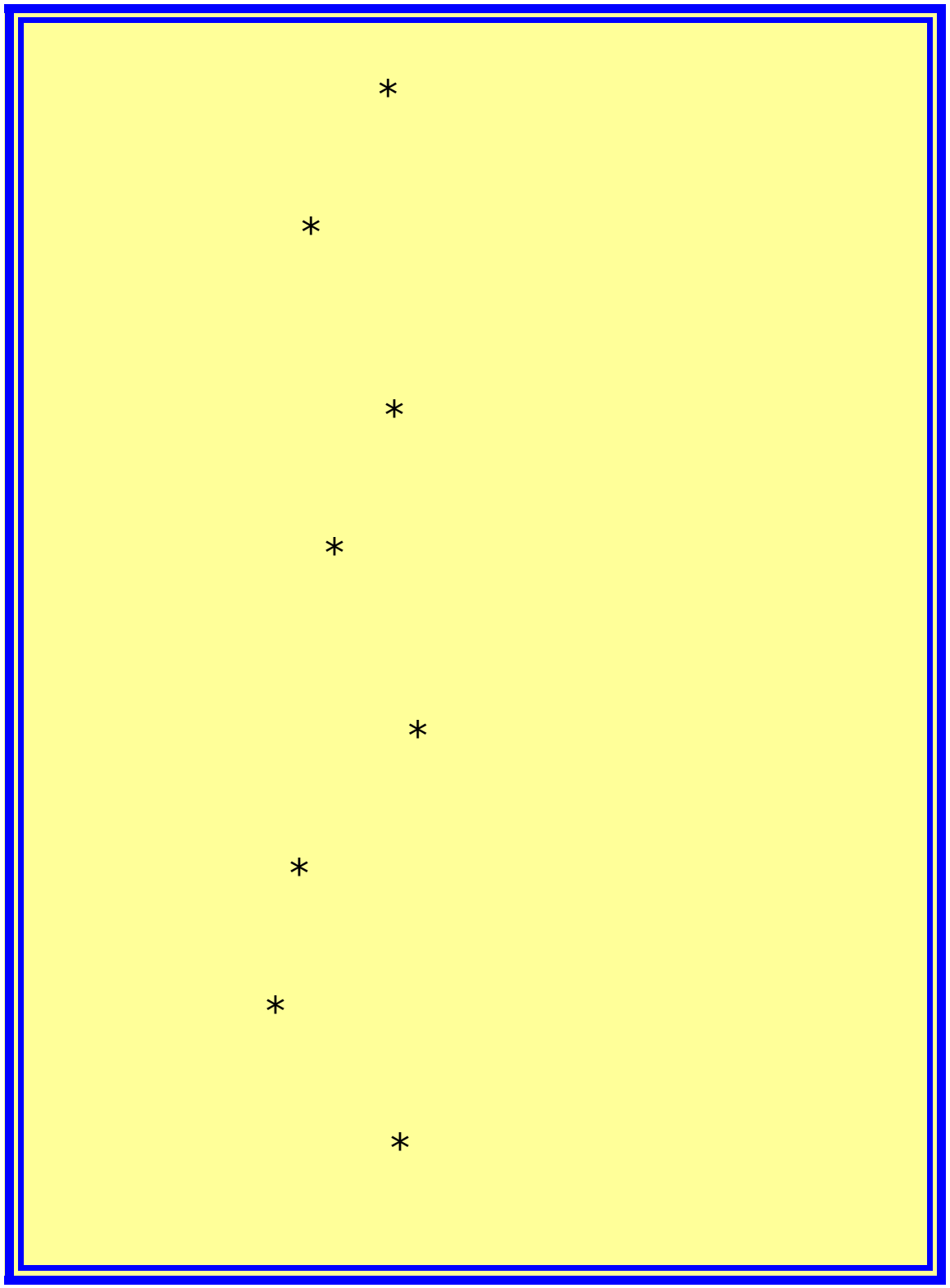

*

*

{الباب الرابع في رجائه رضي الله عنه}

اعلم أن الرجاء كما رسموا هو انتظار محبوب يحصل في المستقبل قال في {القوت} الرجاء هو اسم لقوة الطمع في الشيء بمنزلة الخوف اسم لقوة الحذر من الشيء وقال في {الرسالة} الرجاء تعلُّق القلب بمحبوبٍ يحصُلُ في المستقبل وكما أن الخوف يقع [81] في مستقبل الزمان فكذلك الرجاء يحصل لما يؤمَّل في الاستقبال وبالرجاء عيش القلوب واستقلالها، ومُفاد كلامهم أن الرجاءَ هو تعلّقُ القلب بمحبوب متوقَّع حصلت جميعُ أسباب حصوله مع ارتياح ولذَّة في النفس لعادةٍ لا تتخلّف بين السبب والمسبَّب وهذا أقوى الرجاء وقد تكون قوةٌ دون قوَّةٍ من انخِرام بعض الأسباب ما لم يبلغْ إلي أن يحصُل الأقل ويبقَى الأكثر فهو إذًا أُمْنِيَةٌ قال في {الإحياء} فالرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده ولكن ذلك المحبوب المتوقَّع لا بُدَّ أن يكون له سبب فإن كان انتظار لأجل حصول أكثر أسبابه فاسم الرجاء عليه صادق وإن كان ذلك انتظار مع انخرام أسبابه فاسم الرجاء وإن لم تكن الأسباب معلومة الوجود ولا معلومةُ الانتفاء فاسم التمَنِّي وعلي كل حال فلا يُطلَقُ اسم الرجاء والخوف إلا علي ما يُتَرَدَّدُ فيه أما ما يُقطَع به فلا وحين تقرَّرَ باختصار حدُّ الرَّجاء فلم يبق

إلا النظر في علامته ودلائله وتطبيقه علي أقوال المُتَرْجَم عنه وأعماله وأحواله شأننا في سائر الأبواب فنقول قال في {الرسالة} علامة حسن الرجاء حسن الطاعة وقال عن {أحمد بن عاصم الأنطاكي} وقد سُئِلَ ما علامة الرجاء في العبد فقال أن يكون إذا أحاط به الإحسان ألهِم الشكرَ وقال في {القوت} ومن [82] علامة صحة الرجاء في العبد كونُ الخوف باطنا في رجائه لأنه لما تحقق برجاء شيء خاف فوتَه لعظم الوجود في قلبه وشدَّةِ اغتباطه به فهو لا ينفك عن خوف فوت الرجاء ومن علامة حسن الظن بالله حسنُ التملُّقِ له سبحانه وتعالي وقوةُ الطمع فيه وفيه من الرجاءَ انشراح الصدر بأعمال البر وسُرعةُ السَّوْقِ والمبادرة بها خوفَ فواتها ورجاء قبولها ومنه المهاجرة والمجاهدة بالخدمة من إقام الصلاة التي هي خدمة المعبود وبذل المال سِرًّا وعلانية ومن الرجاء الإنس بالله في الخلوات والإنس بالعلماء والتقرب من الأولياء وارتفاع الوُحشة بمجالسة أهل الخير ومن الرجاء دوامُ التلذُّذِ بدوام حُسْنِ الإقبال والتنعُّم بمناجاةِ ذي الجلال وحسن الإصغاء إلَي محادثة القريب والتلطُّفُ في التمَلُّق للحبيب ومن الرجاء سقوط ثقل المعاونة علي البر والتقوى لوجود حلاوة الأعمال والمسارعةِ إليها والحثِّ لأهلها عليها والحُزْن علي فوْتِها والفرَحِ بدرْكِها كلِّها من القوت فهذه إحدى وعشرون خصلة إذا اجتمعتْ في إنسان فقد ظهرت عليه أدِلَّة الكمال علي كرسِيِّ مقام الرجاء وعليه حال عظيمة من المحبة الخاصة وأراني لولا [83] أن الكتاب قد يقع علي يد من لم يُشاهِدْ {شيخنا رضي الله عنه} في أيام دهره لأحَلتُ المخاطِبَ الكريم علي ذاكرته فيما انتقش فيها من ذكرى آثار سلوكه رضي الله عنه فيعي منها ما لا تحمله

القراطيس ولكني سأتحِفُ الناظر المحِبَّ بتُحَفٍ سنِيَّةٍ وظُرَفٍ غريبة يتلوَّح كمن جملتها علي قليل من كثير من سيرته المرضيَّة ومسالكه العليَّة فأقول: إن أول دلائل حسن رجائه لمولاه أنسه به ودوامُ شوْقِه إليه وأظهَرُ ذلك أنسُه بالعلماء وأقربُهم إليه والده النبيل وتقرُّبُه من الصالحين الأحياء منهم والأموات فإنه رضي الله عنه قد مرَّ بك أنه كان يُجانب الاختلاط ومجالسَ اللغْوِ ويُلازِم مجلس الفقيه النبيل والدِه ويُصغي لحكايات الصالحين وقِصَصِهم ويتَكَلَّفُ أعمالهم وهو صَبِيٌّ كحكاية قيامهم وصيامهم وصدقاتهم وهو غير مكلف حُبًّا جَبلِيا في الصالحين فإنه رضي الله عنه لم يتردَّدْ لمجلس تعليم الشيخ الوالد مرات حتى نزعَ نفسَه إليه من خاله الجليل العالم النبيل {محمَّدُ بُصُ} كما تقدم لا لنقصٍ فيه ولكن لاشتغاله بالسياسة والتدبير في إمارة {مَبَهْ} الذي آثره لسَدَادِ رأيه ونُصحِه وعِلمه واستقامته علي غيره من علماء البلدان فإيثار [84] {شيخنا رضي الله عنه} لدولة العلم علي دولة المُلك وإيثارُه لشَظَفِ المدارس علي رغَدِ الإمارة ولذُلِّ القرَّاء علي عِزِّ القواد وأقرانه من أبناء الرؤساء ضاربون في غِمار الحُبور واللهو يمينا وشِمالا لَدَلِيلُ صِدقٍ علي قوة إيمانه وصِحَّةِ رجائه كان كثير الاعتناء بالغرباء وأبناء السبيل يتكلَّف قِراهم وهو لا يملك شيئا حتى أنه قد يأخذ من والدته وحواضِنه طعاما ويحمله للنُّزَلاءِ الغرباء في ساحات الدُّور ممن لا يُعبَأ بهم وقد يكون فيهم من علماء البياضين الفقراء من يَضِنُّ بأمثالهم الزمان ولكنَّ أعيُن الناس في الزِّيِّ وعينُه في الحقائق حتى بلغني أنه انتفع بأولئك العلماء كثيرا في ثقافته الأولى وتهذُّبه ولو لم يتأنَّسْ بهم وطرح الوُحشة بينه وبينهم لما آثرهم علي مسامرة الأقران ومحادثة الإخوان وكان رضي الله عنه كثير التفقُّد لمن

بلغه صَلاحُه من أبناء الصالحين وكان كثير الزيارة لمَقابرهم في جميع زمن بدايته فتعرَّف من ذلك بأكثر أهل الصلاح والعلم في صِباه كـ{محمَّدٍ بن الكريم الفاضِليّ الديماني الشاعر} و {عبد الله التَّامَكْلَاوِيّ} و {الحاج إبراهيم البغدادي} وغيرهم من بيضان الصحراء الكبرى وأمثالهم من السوادين كعَمِّه [85] ابن خالة أبيه {صَنْبَ تكْلُورْ} معلمه الأول و{جِيرْنُ إبراهيم كَنْ التَّكْرُورِيّ} العالم العلامة من تلامذة {مِحَنضْ بَابَهْ} وأقران والده مثل {محمد سل} و{القاضي مَجَخَةَ} كل هؤلاء كانوا من أقران {الشيخ الوالد} إنما اتصل بهم من مصادقتهم الوالدَ واشتهارهم بالعلم والدرس ومن معاصريه جمٌّ غفير كـ{الحاج دَرَامِ} و{سيد خُوَيْهْ} و{الحاج مالك سِهْ} و{الحاج محمد كَمَرَ} وستأتي إن شاء الله أسماؤهم وشيء من سيرتهم عند ذكر شهادات الأعيان أولا وآخرا في باب مفرد والقصد هنا إقامة الدلائل علي حبِّهِ لجميع أهل الخير من أهل العلم والديانة حبا لمَدْلُولِ علمهم وهو الله تبارك وتعالي ودينُه ومقصودُ ديانتهم وهو القرب منه تعالي وإن تفاوتت المراتب فالوِجْهَة واحدة والمُحِبُّ الحقيقي يراعي كل انتساب لجانب محبوبه من أيٍّ كان وفي أيٍّ كان فصِحة رجائه رضي الله عنه ظاهرة في أنسه به تعالي في الخلوات وما أنسه بالعلماء وارتفاع الوحشة بينه وبينهم سواءٌ كانوا أقارب أو أجانب جيرانا أو غرباء إلا بمقدار ما لكلٍّ من الأشغال والخدمة لجانبه تبارك وتعالي وإلا فهو مجانب في الوُجهات الغيرية [86] مواصل لهم في وجهة القُدْسِية وهذا الانتزاع مشاهَدٌ فيه عند كل من له أدنى معرفة به ولقد كشف القناعَ عن حقيقته ما واجه به حاكمَ {انجربل} المبير حاكم العنف والعطرسة إذ طلب منه المعونة بقدر من الدراهم نحو ثلاثة آلاف يستعين بها

علي إكرام نائب عظيم عنده من أعيان مجلس النواب في {باريس} وقد أتى ضيفا لـ{سنغال} قال له الحاكم في المحاورة إن أعنتَني في هذه النائبة فسأقوم لك مع ضيفي هذا وله قدر مُنيف بجميع حاجاتك عند الدولة يتوهَّم أن في قلب {شيخنا رضي الله عنه} حاجا ولو بإخلائه وتسريحه ليذهب حيث يشاء ويسكن حيث يختار من شدة ضغطهم له وحَرَجهم عليه في مذاهبه ومساكنه لكثرة قومه وتوفُّر جميع أسباب المطالب لديهم لو أراد أمرا ولكنه في واد وهم في واد وجوابه للحاكم أيها الرجل اطلب ما تطلب يا من في نفسه حاجة يريد قضاءها تُعَنْ بما أمكن ولا تبحث عن حاجتي فإنها قضِيَت ولا حاجة لي بعدها فإني ما أحببت شيئا غير اله تبارك وتعالي من يوم غفلتُ إلي موقفي هذا وقد حصلت عليه كما أحب وأختار فهو سبحانه معي حيث كنت وغيرُه ساقط لا علمَ لي به ولا إرادة فبُهِتَ الرجل وعلم أنه لا حُكمَ له علي مشاهدة العبد الأواب المؤيَّد [87] من الغيب بقوة لا تكافَح فإنه من عباد الله عز وجل المصطفيْنَ الأخيار أولي الأيدي والأبصار انظر كيف يشهد علي هذا مريدُه الصادق وعدوُّه المنافق في أواخر أيامه الدنيوية وفي فتوحه اللدُنية الطافحة وإقبال الخلق وجميع خيور الدنيا بأمواجها الزاخرة كما شهد له رفقاءُ الصِّبا حتى {حكى} عليَّ معاصرُه {بَكَّهْ جَنْكْ} وهو اليوم شيخ قبيلة {عافيه} أنه فُطِمَ معه في يوم واحد وكانا في مكتب عم {شيخنا} قال لي إن والدَكم لم يزل علي انقطاعه عن الناس منذ صِباه فإنه كان يقول لنا مُعلِّمُنا إذا أخذْنا ألواحنا امشُوا واقرءوا بجِدٍّ ولكن جانبوا {سَرِينْ بَنْبَ} لا يأتيه أحد منكم تحت شجرته التي يقرأ عندها فإنه ليس منكم انظر هذا الفرق وهم عُمُومتُه ولكن حلَّ أدبُه ولينه وطاعته لأوامرهم وعدمُ

مُزاحمتِهم في دنيوي حيث كانت تحُلُّ النَّفاسة في الأقارب.

{لطيفة}

لما ختم الشيخ العافيُّ حكايته وكلامَه تنفَّس الصُّعَداء وقال إنه والله لعجيب تذكَّرتُ يوما خرجتُ ونحن غلاميْن من قرية {إيُّورَ} وهي قرية {مَبَهْ} وهم في {سَالُمْ} كما تقدم قال فما مضينا في الطريق قليلا حتى وقف وقال فلنَتَبَرَّدْ قليلا ثم نروح فإني كأني بالناس في {سِينْ} وقد التحموا في القتال وكانت المسافة بين الموضعين ثلاثة أيام فلما رجعوا أخبِروا بوقوع القتال [88] في ذلك الوقت وقعة {محمود اندَرِ} خليفةُ {مَبَهْ} الفاتح المتقدم.
وحكى عليَّ أحدُ المريدين عنه رضي الله عنه أنه لا ينسى لوالده يوما نزل به رجلٌ صالحٌ من أشياخه وحين يُسافر خرج يشيّعه حتى حاذى به الموضعَ الذي كان {شيخُنا رضي الله عنه} يختلي بدروسه فهَمَسَ في أذن الضيف أن اجنحْ لهذا البيت الخالي فإن فيه غلاما من أولادي شأنه مُخالفٌ لشؤون عصره لتدْعُ اللهَ له فإني أتفرَّس فيه خيرا و{شيخُنا رضي الله عنه} يسمع كمن لم يسمع فعرَّجَ به إليه فدعا له أترى كيف يتفق شهداءُ البداية مع شهداء النهاية علي اتحاد وُجهته وتشميره لدرك مقتنَصه فإيمانه الفطرِيُّ استصحب صدق رجائه فهو يستشعر الخوف من فوت رجائه لعِظَم مرجُوِّه في قلبه وشِدَّةِ اغتباطه كما قال {أبو طالب} فشاهد خوفه هروبه من الخلق وانزواؤه عن الدنيا إلا أهل الله وما يضطر إليه الدينُ وتبطُّن الخوف في رجائه جعله يُمعِن في الفرار من كل مثبِّطٍ ويستشعر الوَجَلَ من مُدانات

كل قاطع إذا أراد الله بعبده أمرا هيَّأ له أسبابه كان رضي اللَّه تعالي عنه حسَنَ الطاعة يُطيعُ ربَّه ملتذًّا لا كعبد السوء يسوقُه بالعصا قال في الحُلَيَةِ عن {زين العابدين بن علي بن الحسين} كان يقول إن قوما عبدوا الله رهبة فتلك عبادة [89] العبيد وآخرين عبدوه رغبة فتلك عبادة التُّجَّار وقوما عبدوه شكرا فتلك عبادة الأحرار فهو عليه الرضوان حرٌّ كريم إذا امتثل أمر ربه يمتثله علي صراط مستقيم ويمضي فيه فرحا مَرِحًا وإذا اصطدم به البلاءُ يلاقيه بصدر رحب فيصدُق في الرجاء لتنزُّل الوعد بالثواب عنده منزلة الناجز فيزداد عملا ويزداد قُرْبًا وإذا أحاط به الإحسان يتطلب فيه بالشكر فيُلهَم المحامد ويُلقِّن أذكارها كما في الرسالة ويراقب في جمع أنفاسه مواقع حسن طاعته فيصرفَه فيها وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان قال فيه الشيخ الأفخم علامة الإسلام الدَّابِّ عن السنة عينِ أعيان الأئمة صَديقُه الأعز {الشيخ سيدي} من جملة قصيدة له:

*

*

*

هكذا فلتكن الأئمة نصحاءُ الدين أنصار السنة أهلُ المعرفة من أهل الإيمان قال في {الصحيح} {لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبه لنفسه} لو لم يتخلق هذا الشيخ بأخلاق القرآن والسنة لما نطق بهذا لهذا

ولكن لا يعرف الفضلَ لأهله [90] إلا أهلُه فجزاه الله تعالي خيرا من خليل صِدق وناصر حق بقلبه وعمله ولسانِه رضي الله تعالي عنهما وبارك في خلفهما آمين.
قال في {القوت} ومن علامة حسن الظن بالله لطفُ التمَلُّقِ له وقوةُ الطمع فيه والتملُّقُ: التوَدُّدُ والتلَطُّفُ والطمع والحرص علي المطلوب فالتودد للمَلِك من شعار العُبودة وحُسْن التلطف من آداب التطفُّل وأتم الخلق قياما بذلك أنبياء الله وملائكته لأنهم أقرب إليه سبحانه والأصدق في التفعُّل هو الأقرب للفعل والوَدُود من أسمائه تعالي تفضَّل علي الخلق بموهبة التخلُّق به ليكون لهم سببا في ودِّه وكونهم من أهله والتلطف ببابه فالأخصُّ بودِّه تعالي هو الأكثر تودُّدًا إليه فلذلك كان الاسم الربُّ وسيلتهم في الدعاء والخطابات وهو أجمع لآداب الطلب والعبودة لأن أول ما يتصوره المتلطِّف في الحاضر ربوبيته تعالي وتتضمن جميع أوصاف الكمال ثم مربوبيته هو وضمنها جميع أنواع الذُّلِّ والخضوع والافتقار ولا يخفَى ما في ضِمنِها من التلطف لذكر الطلب لما فيه من الإقرار بالعجز والفقر والشهود له تعالي بالغِنَى والقدرة فاسمُ الرَّبِّ أنسب اسم يقرَع به العبدُ بابَ سيِّدِه فلذلك كان خطابَ الأنبياء في الكتاب العزيز وخطابَ الملائكة [91] فحسن الظن بالله يزيد في حسن التملُّق والتلطف ويزيد في قوة الطمع في نواله وأعلم الناس بالله أحسنهم به ظنا وأحسنهم به ظنا أقواهم فيه طمعا فأعلمهم به رضي الله عنه سول الله صلي الله عليه وسلم فكان الغاية في قوة التودد وحُسن التملُّق يقول في دعاء ثقيف {فإلي من تكلني} إلخ ويقول سَلُوا لِيَ الله الوسيلة فإنها درجة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله الحديث يتملَّق له تعالي في أن يكلأه في نفسه ودينه فإن الدين الحقَّ ذاتِيٌّ فيه عليه الصلاة

والسلام ثم يطمع إليه في الحظ الأكبر علي الإطلاق والمخصوص به ما ذاك إلا لمَزيد معرفته وقُربه علي غيره من جميع الخلق فكان مزيد علمه في أنه تعالي لا يتعاظمه شيء أن يعطيه جعله يطلبها وقد سبق له من ربه الكريم أن يجيبه فيما يطب فلذلك نصح أمته صلي الله عليه وسلم في فتح باب الدعاء وتشريعه لهم تبيينا لهم ما نزِّل إليهم فتبعته صحابتُه ثم أولياء أمته وسائِرُ المؤمنين فكان من ذلك ما يدلنا علي أن من مزيد علم العبد حسنُ تمَلُّقِه وقوةُ طمَعِه لمَزيد حسن ظنه وصِدقِه في اتباعه النبي صلي الله عليه وسلم ومَزيد اقتفائه وانتهاجُ سبيله والعملُ بسنته فإنه قال في تقوية الطمع ليُعزم المسألة وليُعظِّم الرغبة فكثرة الطلب إن كان عن إلهام [92] فدلالة اختصاص بالمطلوب وإن كان عن مجرد حسن ظن مطلق فهو درجاتٌ بحسَبِ درجات المعارف والمكاشفات في علوم الله للعبد وهو دِلالة علي صحة إيمان وفيه الخير كله وإذا أردت أن تدرِك معنى من معاني خصائص {شيخنا رضي الله تعالي عنه} من خلَعِ سيِّد الوجود عليه صلي الله عليه وسلم فانظره بعد فَرائض الأفعال والأقوال وسُنَنِها علي كيفيتها المشروعة في كثرة طلباته وعزمه في الدعاء وتعظيم الرغبة تتبيَّن لك فيه حقيقة صحة الرجاء علي بابها فإن للإنسان في كل مقام من مقامات اليقين حالٌ من الرجاء كما أن له في كل رتبة من رتَبِ المعارف ما يسمى ظنا بالنسبة لما هو أعلي منه من الكشوفات فحسن ظنه صلي الله عليه وسلم بنيل الوسيلة أقوى من كل يقين لغيره ورجاؤه للفوز بها فوق كل محقَّق في حق غيره صلي الله عليه وسلم والأمور نسبيَّة فها أنا أعطيك أنْمُوذِجًا من ترجمته عن حاله النفسية في

مقام الرجاء في بدايته فتقف منه علي ما تقبَله نفسُك ولا تتردَّد في القطع أنه صادرٌ عن وجدانٍ وذَوْقٍ.
بسم الله الرحمان الرحيم ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها قال:

*

*

*

*

*

*

*

*

*

*

*

*

*

*

*

*

إلي آخرها

فهي علي هذا الأسلوب كما ستأتي إن شاء لله يدعو ربه تعالي موقنا بالإجابة كما في الحديث {لا يدعو أحدكم ربَّه إلا وهو يوقِن بالإجابة فهو يتلذَّذُ دواما بدوام حسن [94] الإقبال والتنعم بمناجاة ذي الجلال يدعو ربَّه صادقا في رجائه مصدِّقا بإنجاز وعده الذي لا يتخلَّف سبحانه في مقام الرجاء الحقيقي وعليه حال الرضى مَبنِيَّة لقوله {لتجود لي بما يصلحني وما يفيد} فإن الدعاء مقبول ولا بد من إحدى الخصال الثلاثة الواردة في حديث ابن حنبل وصححه الحاكم بإيجاد المطلوب أو بصرف مثله من البلايا عنه أو بادخاره للآخرة فلا يمكن العبدُ الرجاءَ إلا بحسن ظنه في مرجُوِّه وإيقانه بوفائه واعتماده علي حسن نظره له فيُفوِّض إليه الاختيار ثم يرضى باختياره فيكونَ له قَدَما في التوكُّل وحالا من الرضى وهو ذَروةُ مقام الراجين فلا يخيب صاحبه لأنه أجاب داعيَ الله وآمن به قال تعالي {أجيبوا داعيَ الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويُجِرْكم من عذاب أليم} فحسن إصغائه لمحادثة مولاه الكريم بتلاوة كتابه وتدبُّر آياته أكسبه دوام التلذُّذِ بدوام حسن الإقبال فلو لم يُرغِّبْه القرآنُ في كرم مُنزِله والائتساء بالمنزَّل عليه صلوات الله وسلامه عليه لما عزم في المسألة وعظَّمَ الرغائب حين يقول:

*

فمشاهدته لغناه وكرمه أسقطت من عينه غيره وقصرها [95] علي فضله ودون ما سواه فلم يتخذ عدوَّه تعالي وليا يلقي إليه بالمودة ولم يهب سطوته لمشاهدته قُوَّته القائمة سبحانه بكل قائم فقويَ طمَعُه في نيله وصحَّحَ اعتماده علي كفايته فلم يرجُ غيره ولم يخف سواه وآية ذلك دوام مضي هجرته إلي الله ورسوله من لدن عقل

وطول مجاهدته بالخدمة من إقام الصلاة وطول القنوط فيها وإيتاء الزكاة وبذل المال والإنفاق سرا وعلانية وسهولته عليه وسقوط ثقله عنه ومزيد حلاوة المعاونة علي البر والتقوى والحث عليها والفرح بدركها بصفاء الإخلاص وكمال السخاء كل ذلك كان مهاجرا إلي الله ورسوله صلي الله عليه وسلم بكليته قال صلي الله عليه وسلم {المهاجر من هاجر ما نهى الله عنه} فإنه رضي الله عنه لم تحفظ عنه مخالفة ما كانت جُبِلَ علي الطاعة وفعل الخير يهاجر أقران اللهو إلي ذوي الأحلام والنهى ما خال مذ صباه أحدا إلا في الدين وعلومه وكان الغلمان إذا أرادوا اللعب وهو فيهم يعزلونه عنهم حتى أن الشيخ الولد ما كان يجعله معهم في خدمة واحدة إنما ينظر له جانب ما يقوم به ومن حين حظِيَ بشيء من العلم جهدَ في استقصائه لأنه يجد منه إنسا وحجابا عن اللهو ولاَ كان يصافي من أهل المدرسة إلا كل مجتهد في دروسه [96] متورع في دينه كـ {بَلَّ مَامْ تُورَ} وأضرابه ولما ترعرع هجر كل ما لا يعنيه من أمور الدنيا والاختلاط بأهلها واختص بالقيام بأمر {الشيخ الوالد} والاعتناء به فكان يُهدِي له بكل ما رُزِقَ به وقد كان كثيرٌ من الناس يُحسِنون به الظنَّ فيطلبون منه الدعاء والرُّقَى بما ثبت في الكتاب والسنة ويُتحِفونه من ذلك إذ جرَّبوا برَكَتَه بأشياء لا يقتنيها إنما يَبُرُّ بها {الشيخَ الوالد} قال رضي الله عنه حكاية عن صِباه إني كنتُ قليل الخُبرَةِ بآلة الحرث لضعف البُنية وكثرة الانقباض عن مداخلة الناس وتدابير الدنيا وكان {الشيخ} يَعْلَم ذلك فيَ وجعل يُجَنِّبُني كل ما في جنب ذلك وإذ علمتُ أنه ينبغي للمرء أن ينفع في جماعته صَرَفتُ مساعِيَ إلي النقل والتدريس فكان الناس يرغبون في ذلك كثيرا وقد أعمل بالأجرة في النقل فأستفيد منه كثيرا أهديه

للشيخ وقد يكون أكثر منفعة من شغل كثيرين في الحرث فما كنت أبقي لنفسي إلا الضرورة فحَظِيتُ عنده من هذا النصح فتمادى في بروره زيادة علي اشتغاله بالعلم مهاجرا للجهل حتى تبحَّر فاشتغل في التأليف تجديدا واختصارا فنظم بداية الهداية في حياة {الشيخ الوالد} ثم في التوحيد كبرى السنوسي ثم في الفقه نثرَ الأخضري ثم في التصوف خاتمة التصوف ثم في النحو الجرومية [97] وقال إنه كان يريد أن يكتب في العروض ثم عثر علي كتاب {ابنِ عَبْدَمٍ الدَّيْمَانِيّ} فوجده كافلا بما كان يريد من الاختصار والوضوح قال فاكتفيتُ به وكذلك الفنونُ المتمِّمَة كالبيان والأصول فإنه ما مضى عليه قليل بعد وفاة {الشيخ} الذي كان هو حاجزه دون الاستقلال إلا وغلب عليه التعرُّف وهوَّنَه عليه زهدُه الجبْلِيُّ وثراؤه بالعلوم الشرعية فأجب داعي الرجاء من قوله تبارك وتعالي {فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالح ولا يشرك بعبادة ربه أحدا} بالإكثار من العمل الصالح من إقام الفرائض والسنن والتقرب بالنوافل الكثيرة ومَزيد المراقبة والمحاسبة ليُخلص العمل لربه تبارك وتعالي وحده فليس تصوُّفُه تصوف مجذوب يهيم بكل مذكور ولا تصوف متنسك يتهافت علي كل مأثور وإن كان الكل في خير كثير ولكن تصوُّفُ أوَّاب حفيظ خشي الرحمان بالغيب وجاء بقلب منيب علِمَ ليعمَل وأخلص ليُقبل وعرف فلزم يتحرَّى السنةَ في جميع تقلُّباته فكان دينه خالصا وعملُه صَوابا.

حكى عليَّ المريد العالم السنيُّ النبيل {عبد الودود بن سِيدِ عبد الله الأبْيِيرِيُّ} أنه مكث معه زمنا طويلا وكان معه علي عادته من أداء الوقت في أول وجوبه قال فكلَّمتُه يوما في وقت الظهر ليُؤخِّر قليلا قال فقال إني أريد أن أفعل عند الأمر.

قال {الفُضَيْلُ بن عِياض} إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن [98] صوابا لم يُقبَل وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يُقبَل حتى يكون خالصا صوابا فالخالص أن يكون لله والصواب أن يكون علي السنة قال {ابن قيِّم الجوزية} فهذا هو العمل المقبول الذي لا يقبل اللهُ من الأعمال سواه وهو أن يكون موافقا لسنة رسول الله صلي الله عليه وسلم مُرادا به وجه الله ولا يتمكن العامل من الإتيان بعمل يجمع هذين الوصفين إلا بالعلم فإنه إن لم يعلم ما جاء به الرسول صلي الله عليه وسلم لم يمكنه قصدُه وإن لم يعلم معبوده لم تمكنه إرادتُه وحده فلولا العلم لما كان عمَلُه مقبولا فالعلم هو الدليل علي الإخلاص وهو الدليل علي المتابعة. بلفظه وهو في غاية النَّفَاسَة فأول دلائل توفيقات {شيخنا رضي الله عنه} فطرة الله له علي الرهبة وحُب العلم فإنه عقل راهبا منقبضا حذِرًا من كل ما يُلامُ عليه وأول من تفطَّنَ لذلك فيه الولدان والحواضِنُ وهي تُكسِب التفكر والتَرَوِّي والإحجام عن كل مشكِل وتبعثُ العقلَ إلي النظر في طريق النجاة وسلوك سبيل الرشاد فحمله ذلك علي استماع قول النزهاء واتباع أحسنه والإقتداء بهُداهم ومبحث ذلك العلمُ ومجالِسُ الصالحين فانبتَّ إليه عما سواه فانكشف له بالعلم طريقُ النجاة وسبيل النجاح فاتبع السنة واجتنب البدعة فأكسبه محبة مولاه له فألزمته ازدياد التقرُّب إليه [99] والتودد له فأنساه دوام تلذُّذِه به تبارك وتعالي الخلقَ فلم ير له شريكا فعبادته له تعالي عبادة إخلاص وحُبٍّ وعَمِلَ علي التقرب بلذة المحبة وصالح الأعمال يرجو رحمة ربه ويحب لقاءه كما في الصحيح {من أحبَّ لقاء الله أحب اللهُ لقاءَه} ومن دلائله هنا أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ودوام معوانته علي البر والتقوى إذا قاربه ولا يُجِلُّ أحدا عن أن

يأمره بمعروف يليق به كان من حكايات صِباه أنه كان يلاطِف {الشيخ الوالد} في أن يخرج من القضاء وربما يكتب له في ذلك تحذيرات يرميها علي موضعه إن خرج ليجدها إن رجع لمجلسه حياء منه وربما يكون الشيخ علي حق لتعَيُّن القيام بتلك الوظيفة الشرعية إن لم يجد من هو أليق بها منه لكثرة المداهنة في الدين والمداراة فالقيام بها لازم إن وَجد في نفسه كفاءة للمَنصِب لأنه يجب علي الأصح له القيام بها عليه كما جرى لبعض صالحي العلماء مع بعض الخلفاء ولكن {شيخنا رضي الله عنه} نظرُه في تزكية النفس وإكمال أداء الواجب الأخصّ مقدم عنده علي غيره مع ما جبل عليه من كُرْهِ ولات الجور وأمراء السوء والاستقلال بنصرة الدين والمُضِيّ علي الحق فيتبعُه علي ذلك من يريده علي الصدق فيُهدَى ويَهدِي أولى عنده من مخالطتهم علي خطر وغرور ولا يسلم من [100] ذلك إلا من سلَّمه الله تعالي فهو رضي الله عنه باق علي الفطرة يحوطه الحَذَر ويسوقُه الخوفُ ويقوده الرجاء فليس للشيطان والدنيا والنفس والخلق مَنفَذٌ يَدخُلون منه عليه ولا بَطالة يُهاجِمُونه فيها، ومنها ما نهى عنه تلميذه التائبَ علي يده {بِرَمْ كُدُّ مَرَمْ جُوبْ} من تملُّكِ شيءٍ من أموال أتباع {أحمد شَيْخُ بَهْ} كما في المقدمة وما جرى له من جَرَّائه بينه وبين {لَتْجُورْ} أمير {كَجُورْ} وقد كان منه شيء في قلوب كثير من العلماء ومنعَهُم خوفُ الأمير وسطوته والشَّعْب العام من إنكاره ولم يسع في ذلك غيرُه وجادل عنه فأنقذ بتلك الفعلة أمَّة من الرِّقّ وفِرَقًا من النار وقس علي هذين ما دونهما وهو كثير فإن أولى من يُستَحْيى منه الوالد المباشِر وأوَّلُ من يُتَّقَى بأسُه الأمير الجاهل فمن يبلُغُ فيه العمل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هذا المبلغ فهل يُقِرُّ أحدا علي المنكر من دونهما أو يسكت عمن سواهما أما مجلسه مع قومه

ومريديه فلا شيء خارج عن الذكر والشكر والأمر والنهي علي مقتضى الكتاب والسنة للنساء والرجال داخلا وخارجا لا نَجْوَى في غيرها ولا سَمرا ولا محاورة كان غالب حديث مع المريد دائر بين تقرير الواجب والمندوب ومصرف المباح لهما حتى يكون جزءً منهما وكان يتفنَّن في إيضاحها تفنُّنًا غريبا ليجَدِّد في الأذن كل يوم ووقت تجدُّدًا [101] يجعلك كمن لم يسمعه منه ويسري فيك سَرَيَانًا يُريك الأشياء كما هي وينشِّط للحق زَمنا لو يدوم ولكن كما قال صلي الله عليه وسلم في حديث مسلم {لو تدومون كما تكونون عندي لصافحتم الملائكة ولكن ساعة وساعة} ولفظه عن حنظَلَة الأسَدِيّ رضي الله عنه وكان من كُتَّاب رسول الله صلي الله عليه وسلم قال: كنا عند رسول الله صلي الله عليه وسلم فوعَّظَنا وذكر الجنة والنار قال ثم جئت إلي البيت فضاحكْتُ الصبيان ولاعبت المرأةَ قال فخرجت فلاقيتُ أبا بكر فذكرت ذلك له فقال وأنا فعلمت مثل ما تذكر فلقينا رسول الله صلي الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله نافَقَ حنظلة فقال مهْ فحدَّثْته بالحديث فقال أبو بكر وأنا قد فعلت مثل ما فعل قال يا حنظلة ساعة وساعة ولو كانت تكون قلوبكم كما تكون عند الذكر لصافَحَتْكُم الملائكة حتى تسلِّمَ عليكم في الطُّرُق وفي طريق {أن لو تدومون كما تكونون عندي في الذكر} الحديث وهذا الحديث أرجى ما ورد لأمثالي الذين يتعظون عند المواعظ ثم يغفُلون جزى الله عنا رسولَه المبلِّغَ عنه ما به رشدُنا وفيه سعادتُنا صلي الله عليه وسلم ورضي عن خديمه القائد بالأزِمَّة علي نهجه القويم رِضًي مؤَبَّدًا وأعاد لنا بفضله عوائد خيره وبِرِّه علي يد رسول الله صلي الله عليه وسلم ويد خديمه المُوصِلة عنه [102] إلينا إنه الغَفور الشَّكور تبارك وتعالي فمجالس وعظه رضي الله عنه لا تُحظَى وإن أردت أن تختصر فقل إنه

ليس له مَجلِس في غيره لأنه يتضمّنُ الذِّكرَ والشكر دِلالة والتِزَامًا وقد أعطيتُك منها صُوَرًا من جمع ابن خالتنا {مختار بنت لوا} العالم الصالح العدل حفظنا الله تعالي وإياه وبارك لنا في جميع أعمالنا فإنه رجل صِدْقٍ ومُريدُ حقٍّ وعالِم فُنونٍ تأتيك إن شاء الله في آخر هذا الكتاب، أما معاونته علَي البر والتقوى فناهيك بها فإنه لا يأمرك بعمل إلا ويدُه معك فيه لا يأتيه تلميذٌ ترك والدا إلا ويأمره بالانصراف حتى يسَوِّغَه إلا إذا تقرَّرَ عنده أن خروج التلميذ مُساغٌ له ثم إن كان متعلما يُرسِله إلي معلِّم مصحِّح ليُتِمّ تعليمَه وإن كان قارئا للقرآن حافظا يجعل له خِدمة بحسب ما يصلح له من القرآن تلاوة أو كتابة أو تدريسا ويتكفَّل له بالمؤَنِ، وإن كان مسترشِدا لا يصلح إلا للخدمة يجعله في مصالح المسلمين ثم يرشده لمَحَالِّ النيَّات وبتصحيحها وتخليصها، أما المشايخ والعلماء والمؤلِّفون فيبذُل لهم الأرزاق والنفقات الباهضات ليتفرَّغوا لماهم في سبيله من سُبُل الرشاد، أما المساكين والفقراء والأرامل فهو أبوهم الشفيق وأمُّهُم الشفيقة فقد كان يأوي ألوفا مؤلَّفة [103] لا يُرزَقون إلا من يده فتراهم في أمن ورَغَد عيشٍ ورفاهية كأنما يُنفِقون من كنوز أرثية يجمعهم لصلاة الجماعة ومجالس الذكر والشكر ويتخوَّلُهم بالمواعظ في الأيام كما كان صلي الله عليه وسلم يتخوَّل أصحابه بالموعظة كراهية أن يسأموا قال في الصحيح عن شقيق أبي وائل قال كان عبدُ الله يُذَكِّرنا كل يوم خميس فقال له رجلٌ يا أبا عبد الرحمان إنا نحب حديثك ولوَدَدْنا أنك حدَّثتَنا كل يوم فقال ما يمنعني أن أحدِّثكم إلا كراهية أن أمِلَّكم إن رسول الله صلي الله عليه وسلم كان يتخوَّلُنا بالموعظة في الأيام كراهية السآمة علينا وقد كان {شيخنا رضي الله عنه} ترى عليه أثر انقباض إذا مر به مضطرٌّ لم يُسعِفْه لعدم علمه به ويَحزَن لفواته وربما إن كان

معروفا يُرسِل إليه بالإسعاف وكذلك إن أتى سائل ثم استعجل عن غير علم منه لحاجة أو لضيق وقت يأمر من يذهب إليه بحاجته وقد تكون بينهما مسافة طويلة حِرصًا علي الخير ورجاءً لربه رجاءَ مؤمن بأجر كريم فإنفاقه وإسعافه رضي الله عنه ينطلق منه سهلا فقد سقط عنه ثِقلُه لوجود علاوة الأعمال كان يقول مشقة العبادة مَنسِيَّةٌ بحلاوة جزائها في الآخرة، وكان يقول الكشفُ المُعتبَر أن تكاشَف بثواب الأعمال الصالحة فتَلْتَذَّ بها [104] حتى لا تحس بتعبها ويُكشَف لك عن عقاب المناهي فتهربَ عن مقاربتها كان رضي الله عنه قرة عينه في العبادة وفي مناجاة رب العزة سمعته يقول لا يُضنِيني مرضٌ ويُنهِك قوَّتي إلا وأكون كلما سمعتُ الأذانَ كأنما أنشِطتُ من عِقال وقال في بعض مناجاته رضي الله تعالي عنه:

*

*

وهذا من حسن إصغائه لمحادثة ذي الجلال تلاوةُ المقرَّبين كان يقول إني أقرأ القرآن كأنما يَقرؤه عليَّ مُنزِله تبارك وتعالي وذلك أن منهم من يقرؤه ويتدبَّر في آياته فأولئك من أولي الألباب، ومنهم من يقرؤه عابدا ويُصغي لمولاه في ما يُتحِفه به من علوم الغيب بلا تفكُّرٍ مجرَّدٍ من الدعوى فأولئك أهلُ المراقبة قال عز وجلَّ {فإنما يسَّرناه بلسانك لعلهم يتذكرون فارتقب إنهم مرتقبون} فلا عليهم إلا صَقْلُ مِرْآت القلب لتنجَلِيَ فيها المعارف من علم الغيب وكان يقول رضي الله عنه لنا صَدَقاتٌ لا يَصلُح لها إلا الفقراء الطاهرون من العيوب

{إنما الصدقات للفقراء} وبقدْرِ [105] انحطاط العيوب تنجلي الغيوب، وكان كثير التلاوة فهي عملُه دِيمَةً آناء الليل وأطراف النهار كثيرَ التهجُّدِ يُصلي ركعتين أو ركعات ثم يرجع للكتابة ويُفَرِّقُ الأقسام من النفقة علي ذويها من عِيَال وضيف وقانع ومعتر تُخلِّلُها التلاوة والذكر ثم ركعتان أو ركعاتٌ ثم هكذا سائر الليل فكثرة تلاوته رضي الله عنه باعثه الرجاء الصادق في التوسل بها إلي محبَّة مولاه وقُربه والإنس به ومُجالسَته والإصغاء إليه كما قال في بعض مناجاته عن وُجدانه رضي الله تعالي عنه:

*

*

*

فصدق رجائه الذي ذكر جعله يتمسك بالقرآن ولا تمسُّك متذبذِب ولا تمسُّك متوهِّمٍ ومتردِّدٍ بل تمسُّكُ مُقِرٍّ بعجزه واثقٍ بناصره عارف بلطفه وحنانه أتي بهذا التشبيه المُرَكَّب لتقرير الحال المقتضي لتمسُّك مثل هذا بمثل هذا وقال:

*

*

هكذا فليكن الرجاء يقود صاحبَه إلي الظفَر بمَرجُوِّه بأسبابه وهي عبادة الله تعالي بذكره وباتباع رسولَه صلي الله عليه وسلم وكان يقول رضي الله عنه من عَبَدَ إلهًا غيرَ الله فسيعلم أنه لا إله إلا الله ومَنْ عَبَدَ الله بغير سنة محمدٍ رسول الله صلي الله عليه وسلم فسيعلم أن محمَّدًا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فهو رضي الله عنه علي الدوام عائشٌ بين الغِبْطَتَيْنِ قال صلي الله عليه وسلم {لا حَسَدَ إلا في اثنتيْن رجلٌ آتاه الله مالا فسلَّطَه علي هُلكَتِه ورجلٌ آتاه الله الحكمة فيَعمَل بها ويُعَلِّمَها} فهو في خلواته التي هي ثلثا دهره تقريبا في العمل بعلمه النافع وفي جلواته في تعليمه والإعانة عليه أما المال فآتاه الله منه ما لم يعطِه أحدا بكيفيةِ حصوله وكمِّه فيما علمتُ وما يبلغه كمًّا يُخالفه كيْفًا فهو غريب في بابه ثم هو مُستغرَق الزمان في خدمة مولاه والمئات والألوف من الناس يَكِدُّون ليُهدُوا إليه فانصباب الرزق إليه كالوابل الدائم لأنه من خزائن الغَنِيّ الحَميد ومن عطاء يدٍ سَحَّاءَ الليل والنهار وما هو في تلك الأمور إلا كحارس يُقسِّم وخازنٍ يُنفِقُ يفعل بيده [107] هاءَ وهاءَ يمينا وشِمالا كأنه المنعوت إذ ضرب الله المثل فقال {ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا} فرزقه عالي المدرار من العلوم النافعة له هو المتهَافِتُ عليه تهافُتَ النَّهِم الذي لا يشبع والملتطم الضارب في غمار لُجَجِه الذي لا يرتوي كالحوت لا يُرويه شيءٌ يلهمه يصبح ظمآنا وفي البحر فمه وهو المفَجِّر للوُرَّاد عيونه الذي لا تغيض وسالك ينابيعه في أراضي قلوبهم الصافية فتخصِبَ منها أودية

أفئدتهم المُجدِبَة بتلقُّفِ الحِكمة ويسُحُّ بها سَحًّا رزقه المادي فهو يُمطِر به الجميع مطرا لا ينقطع ويرسِل به عليهم مدرارا سَحَابُه لا تنقشع قال شاعره العلَوِيُّ {محمد عبد الله بن فَقَّالْ} قاضي قبيلة {إدَوَعْلِ} في ذلك الأوان فيه

*

إلي أن قال

*

وكلا الرزقين حسن لأن علمه لم يتعلمه إلا لله فعَمِل به والمالَ لم يكتسبه أصلا إنما يأتيه عفوا لم يُوجِفْ عليه من خيل ولا ركاب ولم يجتمع عن ذُلِّ سؤال وطول تسيار ولا تقليب محراث [108] وركوب أخطار إنما يفرِغون مجهودهم له لوجه الله تبارك وتعالي فهو يأخذ من حِلٍّ ويضع في حِلٍّ أطاع الله تعالي وخدم رسوله صلي الله عليه وسلم مُخلِصًا فطوَّعه الدنيا وأخدمه من شاءه من عباده هل جزاء الإحسان إلا الإحسان سمعته يوما في مجلس وعظه وقد أهدى له مريدٌ بهدية سنيَّة يقول ليريهم من عجيب صنع ربهم إن هذا لعجب رجلان أحدهما يقهَر الناس ويسوقهم بعصاه لينال من مالهم ولا يُعطيه أحدٌ شيئا إلا من كره وتبرَّم كالملوك ورجلٌ لم يسأل ويُهدَى له كلُّ شيء وأشدُّ شيء علي أهل الهدية أن لا يقبلها هذا المُهدَى له.
قلت كهو وإن لم يبُحْ باسمه فكثيرا ما يلاطِف الناس حاملي الهدايا في أن يعفوه عن طول الجلوس معهم وربما لا يعفوه منه إلا أن يقاطعهم ويقول ما هذا الحبس

إلا غوائل الشيطان والدنيا فليلزمْ هناك من عنده شيءٌ وإلا فلينصرف به فإني راجع إلي ربي وخدمتي له ويشرع حالا بالتعوذ جهرا ويمضي من عندهم في قراءته فمنهم من يرمي ما عنده ومنهم من يرتقب حركتَه في باب من الأبواب ومعهم العشرات والمئات والألوف فسبحان من يصرف عباده الصالحين إليه تعالي ويصرفَهم عن غيره وقد يلبث الضيف أياما بهديته ألفٌ وألوفٌ مُرسَلا من عند أحد من مريديه [109] الرؤساء أو يكون هو بنفسه مالك الهدية يترقَّب أن يجد في مجلسه فُسحةً لإلقاء ما عنده بجانبه حتى أني أتذكر يوما أخرج أحد أبنائه ألفَ درهم هدية منه له فلم يجدْ فُسْحَةً أياما حتى قدَر هو بنفسه ودخل عليه داخل الدار ليُوصِل إليه ذلك ومثل هذا أكثر من أن يُحصَى وربما يكون السائل يقف علي هدية يُرسِلها صاحبُها فيسبقها السائل ويُخبرَ بها {الشيخَ رضي الله عنه} إما أن يأمره بتلقيها ويعطيه أمارة منه يعلمُها المُهدي فيدفعَها له، أما الحيوان والعروض فإنها مُشاعة بين الطالب والمحتاج وترى الأعلاق النفيسة كلَّ يوم مقسَّمَةً في ساحته خُصوصا أيام العيد يُكدِس منها أكداسا يتقسَّمُها المحتاجون ويُتحِف بها أهل المروآت إعانة علي البر والتقوى لا يعرف صاحبُها غلاء ثوب من رخصه ولا عزيزها من مبتذلها كنتُ وأنا صبي أرى البياضين في أرضهم حين كان معهم فيها كلما خرجوا من عنده مساء إلي قبائلهم يحملون من الأردية أحمالا ثِقالا في كل يوم أما ما بعد قدومه إلي أرضه فلا يُوصَف إلا بأن تختصر وتقولَ أن مجاوريه يرفلون في أعلى ما يوجَدُ من أنواع الثياب بجِدَّتِها كأنكم ملوك بحَشَمِها علي الأسرَّةِ وزواره ينقلبون كل يوم كما يصدر الوارد المفرَد عن المنهَل [110] مَمْلُوءة صناديقهم منتفخةً حقائبُهم من محتاج يُعَان

ومضطَرٍّ يُتصَدَّق عليه ومن زائر لوجه الله ينقلب إلي أهله بتُحَفٍ سَنِيَّة يُتحَف بها مكانَ الخِرَقِ من أهل الصوفة نهجَ مخدومه صلي الله عليه وسلم فإنه كان يفرّق في أصحابه الثياب الفاخرة ويخلعُها لهم إذا استُحسِنتْ كما في البخاري من قصة الذي رأى عليه صلي الله عليه وسلم حُلَّة أو قميصا فطلبها منه عليه صلوات الله وسلامه فدخل وخلعها له وكما أعطى لأسامة بن زيد وعلي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب الثياب السُّنْدِسِيَّة ليستمتعوا بها، أما النعم والخيل والبغال والحمير فكأنها هَمَلٌ ترعَى لا تُقصِّر يَدُ دَنِيٍّ عن تملُّكِها منه كما أنه لا مانع لشريف من الاصطلاء من جملتها كما يريد ويرد كل يوم من كل نوع من أنواعها شيء كثير وأكثرها أيام الأعياد فحدِّثْ عنها ولا حرج فصدق رجائه رضي الله تعالي عنه هوَّنَ عليه البذلَ وسهَّل عليه الإنفاق وأسقط من عينه ما ينفد وعظَّم رغبته فيما لا ينفد {ما عندكم ينفد وما عند الله باق قال فيه الشيخ سيدي:

*

[111]

ثم أن صدق الرجاء يزيد الإنابة وإخلاصَ المحبة لن يرجوه ويزدادَ به ابتهاجا وسُرورا قال في {القوت} والأخبار في الحقيقة تزيد المغترّين اغترارا وتزيد المستدرجين بالستر والنعيم خسارا وهي مزيد التوابين الصادقين وقرة عين المحبين المُخلصين وسرو رضي الله عنه لأهل الكرم والحياء ورَوْح وارتياح لأهل العصمة والوفاء ينتفعون به ويشتد عنده حياؤهم ويروح به كرمُهم وترتاح إليه عقولهم فهؤلاء يستخرج منهم الرجاءُ وحسن الظن من العبادات مالا يستخرجه الخوف إذ

المخاوف تقطع عن أكثر المعاملات فصار الرجاء طريقا لأهله وصاروا راجين به كما قال عمر بن الخطاب {رحم الله صُهَيْبًا لو لم يخفِ الله لم يعصه} أي يترك المعاصي للرجاء لا للخوف فصار الرجاء طريقه فهؤلاء هم الراجون حقا وهذه علامتهم. وخلاصة ما كان يمثله لنا {شيخنا رضي الله عنه} في مجالسه أن الفرق بين حسن الظن وعدمه كشخصين يطلبان شيئا عند رئيسهم وقد غلب ظن كل واحد منهما أن المطلوب في المَحَلِّ الفلاني وسبيل الظفر به إنما هو كذا وكذا فعلم بأمرهما الرئيس فقال لهما إن مطلبكما في المحل الفلاني فاذهبا إليه فالمحسن [112] الظن يمتثل أمره وإذا وصل إلي المحل ولم ير ما وُعِد به يُقيم ويقطع بعلم رئيسه ويؤمن بنصحه أما الآخر فيقول إنه لا يذهب إلي المحل الفلاني لأن في وُسْعِ الرئيس أن يأتيه بمطلوبه حيث كان فهو ماض في فَراغه وبَطالته ويتوهَّم أن تُقضَي حاجتُه فهيهات فجزاؤهما عند الأمير بعد الامتحان أن يوصِّل للطالب الممتثِل مطلوبه حيث كان يتوقعه بحسن ظنه فيه وصِدقِ رجائه له والآخر يدَعُه في ذله وإن أراد أن يُحاجَّ سيدَه يقول له السيد أنا أقدر أن آتيك بما تريد في كل محل ولكن ليس في وُسعِك أن تذهب حيث أمرتُك أنت فالفضل لا يقتضي إلا العدْل بينكما في هذا الموقف ويُجازِي كلٌّ بعمله جزاء وفاقا وهو رضي الله عنه عامل علي حسن الظن رغبة في قُرب مولاه في بدايته وزادُه التقوى في ذلك السير وفي نهايته عند انتهاء السير بالتمكين عاملٌ بالوفاء وقوتُه المحبة الخاصة وشرابُه العلم القدسِيُّ الإنهائي فالرجاء درجات يستصحب التمكن من مقامه كل مقام فوقه درجة منه يظهر لك ذلك من اختلاف أجوبتهم للسائلين عنه واختلاف عباراتهم عن حقيقته فكل يُعَبِّر عن ذوقه

ووجدانه ويتكلم بلسان حاله قال [113] في الرسالة وتكلموا في الرجاء فقال شَاهُ الكِرْمَانِيُّ علامة الرجاء حسن الطاعة ثم قال وقيل الرجاء ثقة الجُود من الكريم الودود وقيل الرجاء رؤية الجلال بعين الجمال وقيل هو قرب القلب من ملاطفة الرب وقيل سرور الفؤاد بحسن المعاد وقيل هو النظر إلي سعة رحمة الله تعالي. وهذه الأحوال المتفرقة في غيره مجتمِعَةٌ فيه وقد أجاب الله دعاءه في مناجاة له إذ قال:

*

*

فإن حسن طاعته لا شُبْهَةَ فيه يأتي الطاعة سهلا وذلك أول السعادة قال تعالي {فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى} فنشاطه رضي الله عنه للامتثال وإيثاره علي النفس في سبيل مولاه حتى غلب جميع معانديه في الدين إذ امتحنوه لتتسلط رهبةُ سطوته الدنيوية علي رغبته الدينية فيكون في دينه تابعا لدنياهم فاستقل من بينهم بلواء الإسلام حتى انخنسوا بعد أجهاد طويلة وأتعاب عريضة [114] فنفضوا أيديهم وتركوه ماضيا في سبيله جادًّا علي طريقه فإني لم أزل أتذكَّر يوما أتاه نائب {سينكال} {إبْلِيصْ جَاجْ} معه موظَّفون حَربيُّون وقد قلَّدَته الدولةُ الفرنساويَّةُ الجمهورِيَةِ العامَّةُ بحضور حاكم انجريل في أوان اشتداد سعير لظى الحرب العامَّة الكبرى يُكلِّف ببعث العساكر وحشد الجنود فقابلهم مقابلة وجَّهَتْ أحوالهم بها إلي رؤساء المريدين من تلامذته الكبار لأنه ليس من شأنه الخوض في هذه الأمور الدنيوية لا لنفسه ولا لغيره

فخرج رجال الدولة من عنده مسلِّمين لما قال. وحكي عليَّ رجلٌ كان معهم بصفة ترجمان أنهم حين خرجوا جعلوا يتهامسون في ما بينهم بعضهم يقول أعجبني هذا الشيخ ليس من أمر الخلق في شيء فأجابه الآخر قلت حقا إذ أتيناه لم يرفع رأسه ليرانا بل عينه دائما في محل سجوده فقال رئيسهم {إبليصْ} لا أرى لنا إلا الاجتماع بهؤلاء الذين أشار لنا بلقائهم يعني كبار المريدين فإنهم هم اللذون يُوجَد فيهم للدنيا حظ ولكن من توكَّل علي الله فهو حسبه وتركوه وما انقطع له من أمر دينه مُعافًى فما هو إلا أن حصل الاتفاق بينهم وبين الرؤساء فحصَّلوا لهم أغراضهم بكل سُهولة [115] وهذا قلَّ من جلّ أما رؤيته الجلال بعين الجمال فشهوده لا تحصى ويكفي منها أنك لا تراه أشدَّ ابتهاجا وتهلُّلَ وجهٍ مثل أيام الفتن المظلمة وما أكثرها في دهره لكثرة ما يغلط الحكامُ الجُدُدُ في فهم حاله ونفسيته بعضُهم يتوهم أنه لا يحبه وما هو إلا زهد عامٌّ في الدنيا وبعضهم يقول يستخِفُّ بي لكثرة أتباعه وتهافُتِ الدنيا إليه وما ذاك إلا استغراق القلب في أمور قدسية لا تناسِب المحاورة الدنيوية ولا المدارات وبعضهم يقول يتجرَّأ عليَّ وأنا الحاكم المعظم أو القائد المسلَّم وليس إلا دوامُ مشاهدة جلال رب الكل فيتصاغرَ معه كلُّ مربوب والدليل علي هذا أنه يبتدئ ذلك بنفسه ونفائسه فإن الموت كلا شيء عنده في سبيل الله والأبَّهة عدمٌ نظرُه أمامَ فأكثر ما تراه يجلس علي التراب لا يفترش شيئا وفي المقابلات العظيمة ترى الحاكم العام ووُجُوهَ الدولة يُهيِّئون له الكراسيَ النفيسة في وسط القصر الخاص بالحكام العظام فيأتيهم لا علم له بنفسه ولا بعظمته بين الناس يلبس ثيابا خفيفة كأبسط ما يكون لابسا نعليه السَّبْتِيَتَيْن وإذا تلقاه الحاكم علي ما عُرف من بشاشتهم

وحسن ملاقاتهم يتسارع إلي الجلوس علي [116] وِطَاء البيت بين الكراسي حتى ينازع من معه فلا يوافقهم إلا أن يبَيِّنوا له أن الأدب في عادتهم خلاف ذلك فيُداريهم مُداراةً ما فيمتثِلَ فأدرك العقلاءُ وأربابُ النظر من الأروبيين أن كلَّ ما صدر إليهم منه مما يخالف الأدب عندهم إنما هو فيه مدفوع بقوة إيمان فطريٍّ لا بغُلُوٍّ طبْعِيٍّ مع ما جرَّبوه من زهْدِه الحقيقي لا زهدٌ جزئيٌّ يزهَدُ في المال ويرغب في الرئاسة كما قيل:

*

لا إنما هو زهدٌ في الدنيا كَتْعَاءَ خَضْرَةً حُلْوَةً كما قال لي يوما كلُّ شيء لا يجاوز الدنيا إلي الآخرة فلا حاجةَ لي به. أشهد أنه لكما قال العلوي:

*

وهل هذا يصْدُق إلا فيمن كمُلَ يقينُه وصحَّ توكُّله وصدَقَ رجاؤُه سبحان من يختصُّ برحمته من يشاء وهو ذو الفضل العظيم. تحدَّثتُ إلي صَديقٍ لي من تَنْدَعَ اسمه {محمد بن عبد الرحمان} وهو عالِم نبيل من جملة الفقهاء وهو الذي قلتُ فيه أولَ ما أفقتُ من صَبْوَتِي

*

*

*

وباعث الشعر أني كنتُ في عنفُوان شبابي كلِفًا بكُتُبِ الأدب شغِفًا بقراءَة دواوين الشعراء فخلى بي يوما وعاتبني علي ترك الاشتغال بالعلوم الفقهية وأنه لا ينبغي لمن يُرشَّحُ للتصَدُّر أن يشتغل إلا بما هو الأهم حتى يحصُل علي شيء يسترشد به ويُرشِد ثم بعد ذلك ينظر فيما شاء فثقُل عليَّ كلامُه ولم يقع مني موقِعًا إلا أنه بقِيَ في القلب منه لذعةً تَلْفَحُ وجهَه كلما قابل اللهو واللعب حتى رجعتُ إلي الحق وإن قلّتِ البضاعة فجرى الحديثُ مجراه حتى أتينا لذكر {الشيخ رضي الله عنه} والتعجُّب من أخلاقه وعُلُوِّ مَشاهِدِه ورضاه بالقضاء فقال {التندغِيُّ} والله ما رأيتُه يفْرَح في زمن الشدائد تراه كلما اشتدت الأمور يزداد تهلّلا ولا مثلُه في أيام {دار المَنـَّان} وهي الأيام التي ذكرناها في المقدِّمة إذ ليس الذين ما برحوا يُلبِّسون علي الدولة ي أمره حسدا منهم وخبثَ سريرة ليلا تطلع الدولة علي محاسنه وإصلاحه فيؤثروه عليهم [118] وهم الذين لا يعيشون إلا من الكذب والخِيانة والتَمَلُّقِ فأوقعوا الدولة في جانبه كثيرا قبل أن تنتبه لهم وتردَعَهم كما وقع ما كانوا يخشون لما اختبرته وامتحنتْه فوقفتْ منه علي رجل فَذٍّ من

المُصلِحين فضمَّتْ عليه بأيديها وعدَّتْه أكبر عوْنٍ علي ترقية الشئون فهذه الأيام التي ذكر الرجل من أشدِّ الأيام لأنها أيام حرب تمَّتْ تعبئتُها وهي واقفة عند كل باب المِرصاد ثم وقى اللهُ شرها قبل أن تلتظِيَ كما وقفتَ عليه مُفصَّلا في المقدِّمة فكان {شيخنا رضي الله عنه} لا يعبأ بالأراجيف بل في شغله الشاغل من التربية والترقية وإقام أركان الدين لا يُضمِر شرا لأحد ولا يريد خيرا إلا من الله وحده وبعبارة أخرى لا يرجو صَديقا ولا يخاف عدوا بل علي الدوام في مشاهدة الجلال بعين الجمال كما قال صاحب الرسالة وتقف عند مراجعة المقدِّمة علي كثير من الأدلة علي ذلك.
أما حال من يقول أن الرجاء هو سُرور الفؤاد بحسن المعاد فذلك أشبه بمن تحقَّق في مقام الرجاء وعليه حال المحبة الخاصة لأن من حال المُحِبّ الصادق أن يتلذَّذَ بكل حركة صادرة عن المُحَبِّ إن كان خيرا فهو ذاك وإلا فلا يراه إلا سببا للخير وسببُ الخير خيرٌ فهو دائما علي التلذُّذِ ما دام المحبُوبُ متصرِّفًا ولن يزال فإنه تعالي {كل يوم هو في شأن} [119] فهو رضي الله عنه متصف بهذا الوصف طول عمره لا تُكَدِّرُ استحالاتُ الطبيعة إنما هو في صفاء علي استمرار قال:

*

وقال:
{ }
لأن هَمُّه صفاءُ المُلك لله تعالي وحده ودوامُ اصطفاء رسول الله صلي الله عليه وسلم من سائر الوجود وهل المُلك إلا لله تعالي وحده وهل المُصَفَّى إلا رسولُه عليه صلوات الله وسلامه بَلي ورَبّي فهو رضي الله عنه

الصافي العمر الطيب العيش الباقي اللذات المتَّصِلِ الحياة الدنيا بالحياة الأخرى بلا موت قال:

*

لأن الموت فناءٌ وما فناءُ من قد فنِيَ عن نفسه إلا بقاءٌ علي حَدِّ قولهم نفيُ النفي إثباتٌ وما هو إلا التحاقٌ بالرفيق الأعلى كما في الحديث الصحيح وقال تعالي {ولا تحسبنَّ الذين قُتِلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يُرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم [120] من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون} قال {الشيخُ سِيدِ المختار الكُنْتِيُّ} في {فتح الودود} له في استطراداته للتكلُّم علي مقامات القرب

*

ففناؤه رضي الله عنه عن نفسه أورثه البقاء من ربه قال:

*

وإنه يقول:

*

فإنه ذَهَل عن حق نفسه وحظِّها من الفناء والبقاء بربه الأخذِ بناصية هُمُومِه المُصَيطِر علي مَجامع قلبه فآتاه الاسم الأعظم تُحفَةً والصِّفاتَ العُلَى قُوتًا فهو عند ربه يطعمه ويسقيه بانسِحاب جاه متبوعه عليه صلي الله

عليه وسلم القائل {أنا لست كهيئتِكم أظل يُطعِمُني ربي ويَسقيني} قال رضي الله تعالي عنه في منظومة:

*

*

خصَّ السُّجود بالذكر بين أوصاف المتقربين لأنه كما قال عليه [121] السلام {أقرب ما يكون العبد إلي الله في حال السجود} فإذا كان الله تبارك وتعالي سَمْعَ العبدِ وبَصَرَه ويَدَه كما في حديث {لا يزال عبدي يتقرَّب إلي بالنوافل حتى أحِبَّه فإذا أحببت كنتُ سَمْعَه الذي يسمَع به وبَصَرَه الذي يَبصُر به} الحديث فأين البين حتى تكونَ مسافةُ التقرُّب فرَوْعَةُ ذِكر البين الذي لا يَصدُق اسم التقرب إلا بحدوثه أشد شيء عليهم في هذا المقام فالسجود وأمثاله في حقهم مُجرَّدُ عبادة لا غير وذلك حيث تكون حُليَةُ العبد وهِجِّيراه كما قالت الصِّدِّيقيةُ رضي الله عنها وعن والدها الصِّدِّيق رضي الله عنه قالت: كان تقوى الله هِجِّيرا أبي بكر نفعنا الله بهم آمين وقال {شيخنا رضي الله عنه} في هذا المعنى:

*

أبان أن الإسلام وأخويه يعني الإيمان والإحسان يقودوه إلي الجنة لِتَرَى أنه فان عن نفسه وأعماله وإن تقيّدَ بالأوامر الشرعية وعن المناهي لا تَعمُّلَ له فيها بعد الفناء إنما الله تبارك وتعالي جَبَلَه علي ذلك وحفظه عليه بما عصم به الأنبياء كما تقرَّرَ وهي العِصمة الأزلِيَّة في حقهم وكرامةٌ لخَوَّاصِ الأولياء من سيق الحسنى من الله لبعض الصالحين وقليل [122] ما هم فقوله رضي

الله عنه {لا ألام} في البيت ليس بحشْوٍ إنما هو حرفٌ جاء لمعنًى فإن المَلامَةُ عند خواصّ المقرَّبين تقع بأدنى لمحة من شِبْه حركة هاجسٍ لإمكان رؤية غير الله أيا كان في أيّ كان وذلك ما لم يَحُمْ حولَه رضي الله عنه وقد قال إن بقاء الله حاجتَه والمَلامة عند العلماء وأصحاب اليمين تقع بأدنى غفلةٍ عن أصغر ما رغَّب فيه الشرع أو مقاربة أدنى مَحظُور وخِلافِ الأولى فحِفظه رضي الله تعالي عنه مما خُصَّبه بين الخصائص الكثيرة أثمره له صدق رجائه خائف لربه مُتَّقٍ لمولاه مُحِبٌّ له مستعظم لنعماه قائم بشكره مُواظِبٌ علي ذِكره مُعلِنٌ بثنائه مُوفٍ له بعُهوده منجِزٌ لوعده قائم لربه مجيبٌ عباده إليه وجامعُهم بالأدلة عليه ما أخر وقت الصلاة ولا أفطر يوما في الصيام مُوَدٍّ لفرائض عبادته علي أحسن هيئة وأتم وجه مُقيم لسُنَنِها في أواسط مواقعها سَلِ المِحرابَ وطريقَه الدَّمِثَ تجدُه مطْروقًا وأركانَ بُيوته تجدها لا تُكِنُّ نائما ولا تُؤوِي غافلا وقُدُورَه ومَحَالَّ وضوئه تجدُها لا تجِفُّ وسَل القرآنَ أنيسَه تجدُه مخالطا له اللسانُ به رَطْبٌ والقلبُ به عامِرٌ واليَدُ به ملأى والصناديق والفُرُشُ به متدفِّقة والحَلْيُ والزينةُ له مهيأة والحُفَّاظُ مُكرَمون والتَّالُون مَحفوفون بأنواع التكرِمَةِ والإحسان للجميع قال:[123]

*

وقال:

*

*

وقال:

*

*

وقال:

*

وقال:

*

*

فرجاؤه رضي الله تعالي عنه رجاءُ موقنٍ بوعد الله تعالي ووعيده طامعٍ في سِعةِ رحمته حريصٍ علي خيره الذي بيده واسعِ الأمل لعُلوِّ مشاهدته في أنه تعالي لا يتعاظمُه شيءٌ يُعطيه مستجيبٌ لربه لا يُحجِمُ عن حَظِّ ينبغي لعبد من عباده لمشقَّة تلحَقُ في سبيل [124] جلائل الحُظُوظِ بل يقتحم العقبات ويستهين في سبيل ذلك بالبَلِيَّات أسبابَ فوز ونصرٍ مبين اختصَّه الله بها في سابق علمه وسَبْق حُسْناه فأحرز بها قَصَبَ السَّبْقِ وساد بها كافة الخلق بتأييد الله تبارك وتعالي معجزةٌ لنبيه صلي الله عليه وسلم وآله الذين فتقوا الرَّتْقَ إذ خصَّه

بأسنى خِدَمٍ له بعد صحابته الكرام والاستقلال بنصرته ونصره ما جَاء به بقوة من لدنه تعالي من بين الأنام رضي الله تعالي عنه وعنا به وأعاد علينا من بركته اللهم آمين

الباب الخامس في خوفه رضي الله عنه

قال في {القوت} شرح مقام الخوف ووصف الخائفين وهو الخامس من مقامات اليقين قال الله عز وجل {وما يعقلها إلا العالمون} فرفعَ العلمَ علي العقل وجعله مقاما فيه.
قلتُ ومعنى رفع المقامات بعضها علي بعض الإحاطةُ ثم زيادةٌ علي خصوص موضوع لفظ المُضاف فإذا قلنا رفعَ العلم علي العقل معناه أن دائرة العلم أوسع من دائرة العقل المجرَّد عن العلم فالعقل هو الذي ينتبه للعلم والعلمُ هو المنبِّهُ من الله تعالي ابتداءً والمنبَّه عليه هو العلم بمعنى المعلوم فإذا عقل ما نبّه عليه فهو العاقل فكان أرفع منه لأنه السبب [125] الأول في الحركة للتعلم وهو مقصود المتحرك الذي هو العقل أيضا فهو أرفع لأنه المبدأ وأشرف لأنه الغاية المطلوبة ولذلك تُسمِّي الحكماء المبادئَ والأولويَّات للمُدرَكات ضرورة قال وقد قال سبحانه وتعالي {إنما يخشى الله من عباده العلماء} فجعل الخشية مقاما في العلم حقَّقَه بها والخشيةُ حالٌ من مقام الخوف والخوفُ اسم لحقيقة التقوى والتقوى معنًى جامعٌ للعبادة وهي رحمة الله تعالي للأولين والآخرين ينظِم هذين المعنيين قوله تعالي {يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون} وقوله تعالي {ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله} وهذه الآية

قطبُ القرآن ومَدارُه عليها إلي أن قال فالخوف اسمٌ جامع لحقيقة الإيمان وهو سبب اجتناب كل نهي ومفتاح كل أمر وليس شيء يحرقُ شهَوَاتَ النفس فيزيلَ آثار آفاتها إلا مقام الخوف إلي أن قال إلي أن قال من كلام {سهل بن عبد الله} العلمُ كسب الإيمان وكسبُ الخوف المعرفةُ إلي أن قال وكل مؤمن بالله تعالي خائف منه ولكن خوفه علي قدر قُربه إلي أن قال في التفصيل فخوفُ عُموم المؤمنين بظاهر القلب عن باطن [126] العلم بالعقاب وخوفُ خصوصهم وهم الموقنون بباطن القلب عن باطن العلم بالوجود فأما خوف اليقين فهو للصِّدِّيقين من شهداء العارفين عن مشاهدة ما آمنوا به من الصِّفات المخوفة منه بألفاظه فإنك ترى عند ذكره للمرتبة الثالثة من مراتب الخائفين هيئةَ استعظامه لها وتفخيمِه إياها إذ استأنف الجملة مقتطعَةً عما قبلها بالفاء ثم بإمَّا مع روابطها ما ذاك إلا لشَطَاطِ عُلوِّها في الشرف لتوغُّلِها في القرب من المولى العزيز سبحانه وتعالي من حُسنِ فهمه وذوقه رحمة الله تعالي عليه وتلك المرتبة هي ما تبوَّأه {شيخُنا رضي الله تعالي عنه} مُقِرًّا حياتَه عليها فلا أجلِب من الأدلةِ إلا ما لا يتوقَّفُ عن القطع به فؤادُك وينقاد له قلبك بما يؤدِّيه إليه حِسُّك ويقتنِصُه بسهولة عقلُك من آثار قلَمِه السائل عن وِجدانه ووَجْدِه وشواهِدِ أحواله الناطقة بفرْطِ جُهدِه في عبادته واتِّصال كدِّه من عِظَم جَدِّه وصِدقِ جِدِّه ولقد كان عادتي فيما مرَّ من الكتاب تتبُّع أثرِه من أول سلوكه في كل مقام إلي أعلي ما نعلم فآتي بالشواهد ولقد أراني هنا أكتفي بالعليا من مراتب المقامات اقتصادا من زَمَنِ المُطالِع وتحرُّجًا من إملائه فأذكُرُ شواهِدَه فيها فتدُلُّ علي ما تحتها [127] بدِلالة الاقتضاء والتَّضمُّن وربما أعطِف لبعض مِنَح آيات

وَجَلِه ووَرَعِه وأعماله وحذَرِه وفِقْهِه في علمه وإخباته في مواقع نجوم كراماته وآثار اتباعه {لمحمد صلي الله تعالي عليه وسلم} قال في {القوت} فأما خوفُ الخصوص فهو أن لا يجمع ما لا يأكل ولا يبني ما لا يسكن ولا يُكثِر فيما عنه ينتقل بل يؤثر بالموجود منه ويَعُدُّ نفسه منتقلا في الحال ولا يغفُل أو يُفَرِّط عما إليه يرحل بل لم ينح غيرَ ما إليه يرتحل فهو رضي الله عنه لو لقِيَه صاحب الكتاب لعَبَّر عن حاله من بين أهل الخصوص بما لا يخطُر له إلا عند اللَّقِيّ قال لي ذات يوم هذه الهدايا ما هي إلا أعيان تذكر الله في المواضع التي هي فيها في الدار إلي أن يأذن الله في نقلها إلي حيث يختار لها فمن أتلف منها شيئا بغير إذن فكأنما أتلف ذاكرا أو شاكرا وشاهد ذلك استواء الكثير والقليل والنفيس الغالي والداني في بذله لمن قدِّر له ما وعدمُ اكتراثه بالحرس والاحتراز إلا صونُه صونَ شرع فقط يعلم كلُّ من عَرَفَه أنه لا حاجة له فيها من نفسه وكما قيل في رجال التوبة أنهم لا يضعون لبِنَةً علي لبنة فأقول في {شيخنا رضي الله عنه} أنه لم يضع لبنة علي لبنة إلا أنه فاق أولئك في أنه لا يسكن ما بناه الغير [128] وقد قال {ابن عربي} الشيخ العارف العلاَّمة عند ذكره لهم في كتابه {الفتوحات} أن مساكن السائحين الغِيرَانُ والكهوفُ وفي الأمصار ما بناه الغير أسوة في حال رسول الله صلي الله عليه وسلم فإنه ما وضع لبنة علي لبنة.

وقد زاد {شيخنا رضي الله تعالي عنه} عليهم بما زاده من استكمال حال اتباع النبي الأمي محمد عليه الصلاة والسلام لاكتمال الإرث له عليه الرضوان في القيام بحقوق الغير واستيفاء حقوق الرَّب عز وجل مع دوام الاستزادة منه لوجهه جل وعلا مَظهَرا لقوله تبارك

وتعالي ومَظهَرا لحُكمه وحسن تدبير الخالق الغني بنفسه فإنه صلي الله عليه وسلم يحمي لله ويدَّخِرُ قوتَ عامه ونفقة أزواجه ويجعل خَيْبَرَ وفَدَكٌ عُدَّةً لذلك وما بقي فلذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ويبني المساجد ويتخذ بيوتا لأزواجه ويحفر الخَندَق وكلُّ ذلك تعبُّدٌ منه بالقيام بالأسباب مما آتاه الله تعالي من حكمته وتشريعا لأمته لتبليغ رسالته صلي الله عليه وسلم فشيخنا رضي الله عنه أقعد الناس بوراثته بعد صحابته لعموم قيامه بأنواع اتباعه وفنون شريعته قولا وعملا وحالا مما أوتي من الله تعالي من الاختصاص [129] والقوةِ الحِسِّيَّة والمعنوية فإنه يقوم بحقوق الغير من أهل وولد وقريب ومريد وجار ثم سائر المسلمين يبني لكتبه ويُغالي في صناديقها ويحوط الهدايا المبثوثة لتكون وقفا علي من قدِّرت له من المسلمين ويأمر ببناء مساجده ويشغُل مريديه بها ليكفَّهم عما لا يعني من فضول العيش وآية ذلك توكله علي الله في صيانتها وعلامة ذلك رضاه بالقضاء في اجتماعها ليبَدِّدَها في مصارفها المعَيَّنة له من الله تعالي فيفعل ما شاء الله أن يفعل حيث اختار له سبحانه وتعالي وبتلفها بالغير من احتراق أو سرقة فلا هو بسلامتها أرضى منه بتلفها لأن خوفَه وخشيتَه وهيبتَه أنسته منافع الدنيا الفانية وألْهَتْهُ عن الانتفاع بها إلا ما صُرفَ في الله أو أخذ لله كما قال فيه {القاضي مَجَخَةَ كَل} العالم النحرير الخنذيذ في كتاب كتبه إليه:

*

*

وقال رضي الله عنه

*

فقوله رضي الله عنه {يَثبُتُ لا بذهب موروث} يُوَضِّحُ لك أنَّ ما [130] كان يجتمع عنده من ذلك لا كسْب له فيه وليس له بقُنيَة إذ لو اقتناه لأعِدَّ ميراثا لمن بعده فتعبيره {يثبت} ما هو إلا لسُمُوِّ أدبه مع جانب الشرع فلو عبَّر بيَكُونُ لعارض عُرفَ الشرع فيما يأخُذه الوارثُ من تركَة الموروث فقال {يثبت} ليَدُلَّ علي أن متموِّلَه القلبُ الذاكر واللسان الشاكر وذُخره العمل الصالح فإنه صلي الله عليه وسلم قال {إنَّا معشرَ الأنبياء لا نُورَثُ} وزاد بعضهم {مالا وإنما نورَث علما} فهذا منعه الشرع فلذلك لا يكون وهذا أباحه الشرع شلن ذلك من خصائص الأنبياء ولا نبيَّ بعده صلي الله عليه وسلم فكان العلماء ورَثةُ الأنبياءِ لوراثتهم العلمَ فوارثُهم إنما يثبت إرثه لهم إذا كان وَرِثَهُم علما كما وَرَثُوه من الأنبياء والمراد بالعلم حيث ذكِر العلم النافع الذي من الكتاب والسنة ينبع فهو وإن ورث مالا لأنه وُجِدَ ولم يُورَث من قُنيته التي كان يَعُدُّه ثروَةً إلا بمقدار ما يناله المرءُ من الإخلاص في خدمة المولى علي يديه وبإرشاده بقدر ما اغترف من مناهل فيوض بحوره الصافية وصهاريج سُيُوله المتدفِّقة من نور سيِّدِ الوجود الذي يقول فيه:

*

*

*

وهذه الأبيات الثلاث من قصيدة طويلة تضمَّنت جميع مراتب الخوف من أدناها إلي أعلاها فإن الخوف المعْدُودَ من مقامات اليقين لا يحصل إلا لموَفَّقٍ فبعد الإيقان بالآخرة يحصل الخوف من أمورها الهائلَة فيجتمع الهَمُّ في طلب النجاة فلا يجدها إلا في سلوك سبيل الناجين وسادتهم الرسل وسيدهم محمد صلي الله عليه وسلم وعليهم فاقتفاه هذا الموفَّق من كِياستِه فحصلت له الراحة في الحال والطمأنينةُ ولم يحِدْ عن منهجه فكمَّل تقواه وجاءته البُشرَى من ربه قال تعالي {الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم} وقال {القسطلانِيُّ} عند قوله صلي الله عليه وسلم {أنا سيد الناس} في موضعٍ وكذلك العبد إذا لاحظ ما يكون من فيض المَدَد وشهِدَه من عَيْن المِنَّة ومَحْضِ الجُود وشهِدَ مع ذلك فقرَه إلي ربه في كل لحظة وعدَمَ استغنائه عَنه طرفة عَيْن أنشأ له ذلك في قلبه سَحَابَ السُّرور فإذا انبسطتْ هذه السحائبُ في سماء قلبه

وامتلأ أفُقُه أمطر عليه وابل الطَّرَبِ [132] بما هو فيه من لذِيذِ السُّرور فقوله {بانتباهه} معناه بشَرفه يُقال انتبه الرجُل أي شَرُفَ بناءُ افتعل من نَبُهَ يَنبَهُ إذا شَرُفَ وزنا ومعنى لأن القصيدة مأخوذة من قوله تعالي {من يطع الرسول فقد أطاع الله} ولا يَخفَى علي مسلم ما تضمَّنَتْه هذه الكلمات من التركيب والتنويه بعد التبرئة من النقائص فهذا المدحُ نهاية الشرف في الدنيا والآخرة ولما أوتِيَ رضي الله تعالي عنه هذا الفهمَ الكاملَ لهذه الكلماتِ ورُزِقَ هذا الذَّوْقَ الصحيحَ السَّليمَ الصادِقَ الحقَّ انبتَّ لاتباعه ورَفَضَ ما سواه فأكسبه حبَّ الله وحبَّ رسوله عليه السلامان وحبَّ عباده الصالحين والمحبة والقبول في القلوب قال فيه صَديقه الأعز {الشيخ سِيدِيَ} إمام أهل السنة رضي الله تعالي عنه من قصيدة:

*

فلم يزل رضي الله عنه يعمُر أوقاته بالذكر والشكر بإحياء سنة إمام المتقين ولم تزل الأمداد متواصلة إليه فقال {وإني ريان بأصفى مياهه} كلُّ مياهه صاف ولكل أناس مشربهم وصَفوتُه لأبي بكر الصِّدِّيق رضي الله تعالي عنه الذي قال له: [133] وما علي من يُدعَى من جميع الأبواب يريد أبواب الجنة فبشَّرَه صلي الله عليه وسلم بأنه منهم ثم الخلفاء الأربعة ثم سائر الصحابة ولا أقعد به بعدهم من هذا الشيخ المباركِ فإنه هو القائم حقيقة بعبادة ربه وبأوامره ووفَّى لكتابه ولرسوله وصحابته حقوقهم بالعمل بمقتضاهم والقيادة عليه وسُمُوِّ عِظَمِ المواقع عنده من قَبول مِنَّة الله تعالي بهم والقيام بحقيقة الشكر له عز وجل بما أسدَى من خيره

وتفضُّله بأسبابهم فإنه لا يفتُر عن ذكر الله من عمَله مع هؤلاء وإحيائه لهم ولذكرهم حتى النساءُ والوِلدان لَهجوا بالذكر والشكر إما بالقرآن وإما بقصائده المَبنية بالثناء علي الله تعالي ومدح رسوله وتعظيم قدره والتنويه بالذكر الحكيم. أما مَدار حديثه فلا فصل ولا صل إلا الذكر والأمر بالمعروف والنهيُ عن المنكر وبالجملة فلا يُذكَر إلا وذُكِر اللهُ تعالي وكنا نعُدُّ من إذا رءوا ذُكِر اللهُ من خيار الناس فإذا هو إذا ذُكِرَ ذُكِر الله تبارك وتعالي لأنك إذا ذكرتَ إنسانا تذكَّرتَ حديثه ومَجلِسَه ومعاملتَه وحركاتَه وتصرُّفاتَه ولا تذكر من هذه شيئا إلا ويتمثَّل لك ما ذكرتُ لك منها عيْنا قائمةً تُذَكِّرُك بالله تبارك وتعالي لاشتمالها الصماء بذكره [134] العظيم وهذا أمر وُجداني فيمن عرَفَه مشاهدةً من حاله مع المولى عز وجل وآية سَدَادِه وصِحَّةِ حاله استقامتُه علي ظاهر الشريعة بجوارحه ونفوذِ بصيرته بنور الحقيقة وآية ذلك جدُّه ومواصلة كَدِّه وانقباضه في مخدع الورع في دائرة حدود الشرع من خشيته ما انتفع بشيء تُحتَمل حِلّيته وكان يتحرَّى من الهدايا الكثيرة ما ثبت عنده حِلّيته ويعتني به ولو قل ويتجنَّبُ ما سواها.

حُكِيَ عليَّ أنه سافر مرة مع التلامذة فلقَوْا شيخًا أوَّل غدوتهم حتى دنت القيلولة فَلَقِيَهُمْ رجلٌ يطلب شخصًا فقال أحد التلامذة لقينا شيخا أسود قصيرا فتأوَّه {الشيخُ رضي الله عنه}وقال للمريد أيمثل هذا تغتابون غيرَكم ارجع حتى تراه واستحلِلْه مما نقَّصْتَه به، وقد وطِئت مرَّةً دابتُه قصَبَةً من حرثٍ علي حافة طريقه فوقف ينتظر صاحبَ الحرث حتى أتى واستَحَلَّه ففعل، وكان وهو غلامٌ مع {الشيخ الوالد} في ضِيافة {لَنْجُورْ} أميرِ {كَجُورْ} ووالده إذ ذاك كان قاضِيَ البلد لا يَذوق من طعام الضِّيافة ولا من طعام من حولهم تجنُّبًا لما

تسبَّبَ لأجل الأمَرَاءِ وكان غاضَّ البصر لا يُرسِل طرفَه إلا لما يعنيه، وكان لا ينتفع إلا بكسب مريديه الخاصَّة الذين يأتمنهم في تمييز [135] الحلال والحلال، كان لباسه رضي الله عنه اتقاؤُه للمكاره وخلافِ الأولى فضلا عن المناهي والمكاره ونشاطُه في الامتثال وعزيمتُه فيه وزينتُه، وكان عيشُه في إقامة أركان الإسلام والإعانةِ عليها وفيها غِبْطَتُه وعلامةُ ذلك دوامُ مُشاهدته التي شَاهِدَتُهَا استدامةُ الذكر باللسان ومواصلةُ العمل الصالح بالجوارح وظهورُ نزولِ السكينة في قلبه من طمأنينته في توفية أركان عباداته وشروطها حقَّ التوفية، كان في خلواته وجَلَواته مُلازِما للطهارة مُلازِما للمصحف لا تمُرُّ عليه ساعة من سوائع اليوم إلا ويُقيم لها ركعاتٍ وكانت رواتبُ الصلوات الخمس بالتزامه إياها كهن، وكان يعمل في كل مَرْوِيٍّ بأكمل الوُجوه المَروِيَّة فيه وكان صوم الفريضة كما مر في باب الشكر يُوَفِّيه حقَّه وصِيامُ الأيام المأثورة يُواظِب عليه ويأمر به مريديه وآكدُها عنده أصحُّها روايةً كصوم ثلاثة من كل شهر وصومُ يوم عرفة وعاشوراء وتاسوعاء ثم التي وردت بها الآثار كجِيمِ محرم والسابع والعشرين من ذي رجب ونصف شعبان والخامسِ والعشرين من ذي القعدة علي عادة فُضلاء الصوفية في العمل بما دون الصحيح اصطلاحا في الفضائل فضلا عما في الصوم عُموما من رَوْضِ النفس وقمْعِ الهوى الضروريين لمريد التربية وفي خلواتَه يُراوحُ بين [136] التأليف وتلاوةِ القرآن والصلاةِ علي النبي صلي الله عليه تعالي وسلم تتخلَّلُها الركعاتُ في بعض الأحيان وفي الليل بعد سنته التلاوةُ أكثرها ثم الكتابةُ نظما ونثرا بين الثناء علي الله بتوحيد المشاهدين يتكلَّم عن حاله الرَّاهنة في مشاهدة الصِّفات وهذا النوع هو أكثر كتابته في آخر العمر نحوًا

من ثلاثين عاما ومن بينها مدح رسول الله عليه الصلاة والسلام من النوع الأول أي مشاهدة صفاته عليه السلامان مما ظهر عليه من نوره وانسَحَبَ عليه من جاهه العظيم فهذه الحال هي ما عاش عليها مما ظهرنا عليه من أمره إلي أن أكرمه الله تعالي بلقائه الخاص رضي الله تعالي عنه وأرضاه عنا تفهَّم أعطِيك نَمَطًا من هذا النوع بقطعة مع توسُّلاتٍ أمامها وهي هذه:
اللهم صل وسلم وبارك علي من طلبتُ منك بجاهه كونَ عقائدي وأقوالي وأفعالي وأخلاقي هدًى ونورا ورِضًي وبركة ومنفعة وأجرا ورِبحا وسعادة لا تنقطع أبداً سيدِنا ومولانا محمد وآله وصحبه وارفع هذا الشكرَ مني إليك يا شكور وتقبله مني آمين يا رب العالمين.

*

*

*

*

*

بجاه سيدنا وخليلنا وحبيبنا ووسيلتنا إلي ربنا

*

*

*

*

*

*

وفي الأبيات الثلاثة المتقدمة يقول:

*

*

تراه أقرَّ في هذا لنفسه بالعجز ولربه بالفضل ونفَى أن يكون له عمَلٌ في ارتقائه إلا بالتوفيق وما التوفيقُ إلا برسول الله صلي الله عليه وسلم وذلك مشاهدة القدرة للقادر حين لم ير فاعلا إلا الله ولا فاعل إلا هو ولم تغيّبْه غلبةُ الحال عن التمييز بين السبب والمسبِّبِ فذكرهما معا وقال {طوى لي بُعدَ سيري} في مشاهدة المسبب

القدير جل وعلا وقال {بجاهه} الذي [138] هو السبب ليَوَفِّىَ لكلٍّ حقَّه ولكلٍّ وحده ثم تحقَّقَ وشكر فقال {ولي بان خيرُ السعي بعد اشتباهه} وهذه الكلمة لا توهِمُك أنه في ساعة ما اشتبه عليه الأمر الحق بغيره لا ثم لا إنما هو مراتب اليقين بعضها أرفع من بعض وهو في هذه المرتبة العليا التي هي حق اليقين فصار يَعُدُّ ما دونها بالنسبة إليها من باب ما يقال {حسنات الأبرار سيئات المقربين} فصاحب حق اليقين استولى الحقُّ علي قلبه كما استولى علي شرعه وذلك ما يقوله بعضُ الصوفية قلب الولِيّ هو العرش لا أنه هو عرشُ الرحمانِ العظيمُ وصاحب هذا المقام تستوي عنده الدنيا والآخرة لرِيِّ قلبه بالمعرفة العليا قال صلي الله عليه وسلم في حديث البخاري في أبواب الإيمان {فشربتُ حتى رأيتُ الرِّيَّ يَخرجُ من بين أظفاري} فهو وإن عاش علي الأرض فإنما حقيقته في موطنه المُعَدِّ له في الآخرة فلذلك قالوا إن {عليًّا بنَ أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عنه} قال {لو كُشِف عني الغطاءُ ما ازددتُ يقينا}.

ومنه ما قال {حُذيْفة رضي الله عنه} أصبحتُ مؤمنا حقًّا فقال صلي الله عليه وسلم وما حقيقة إيمانك؟ الحديث

ومنه حديث: وقع نعلُ بلالٍ غذ قال ما أحدثتُ إلا توضَّأتُ ولا توضَّأتُ إلا صليتُ.

ومنه قصر عمر وجاريته التي رآه صلي [139] الله عليه وسلم وسمعَه.

ومنه تناوله لغَرسٍ من الجنة إذ تقدم في حديث صلاته عليه الصلاة والسلام في حديث صلاة الخسوف في البخاري ومن لفظه {قالت أسماء قال قد دنتْ مني الجنةُ حتى لو اجترأتُ عليها لجئتكم بقِطافٍ من

قِطافها} إلخ ثم قال رضي الله عنه {طويت طريق القوم وقت امتداحه} في إثبات الأسباب لحِكمة ربه العليا إذ أضاف إلي العبد كسبَه فقوله {طويت} الشطر فعلٌ معناه انفعال لتفرُّغِه عن طوى لي قبله {وطريق القوم} رُقِيُّهم في مراتب اليقين ومقاماته وانظرَفَ يُحَدِّدُ مظروفَه ويحيط به فإن الوقت الذي أفرده بمدحه صلي الله عليه وسلم الذي يتضمَّن بالالتزام الثناءَ علي الله تعالي والصِّدقَ في اتباعه لأن المُحِبَّ كما قيل لمن يحب مطيع حيث اختصر الطريق واستولى علي المقامات فأتبعه الشكرَ من حسن طاعته في تقواه فقال {ولي قد قضى الحاجات بالروض والبسط} مُعربا عن حاله الراهنة من السكون والطمأنينة قل في {القوت} واعلم أن الخوف عند العلماء غيرُ ما يَتصَوَّرُ في أوهام العامة وغيرُ ما يَعُدُّونه من القلق والاحتراق أو الوله والانزعاج لأن هذا خطرات وأحوال ومواجدُ للوالِهِين وليست من حقيقة العلم في شيء بمنزلة مَوَاجِيدِ بعض الصوفية من [140] العارفين في أحوال المحبة من احتراقهم وَوَلَهِهِمْ والخوفُ عند العلماء إنما هو اسم لصحيح العلم وصِدق المشاهدة فإذا أعطِيَ عبدٌ حقيقة العلم وصِدقَ اليقين سُمِّيَ هذا خائفا فلذلك كان النبي صلي الله عليه وسلم هو أَخْوَفُ الخلق لأنه علي حقيقة العلم وأشدُّهم حُبًّا لأنه كان في نهاية القُرب وقد كان حالُه السكينة والوَقارُ في المَقامَيْن معًا والتمكينُ والتثبيت في الأحوال كلِّها ولم يكن وصفه القَلَقُ والانزِعَاجُ ولا الوَلَهُ والاستِهْتَار إلخ لفظِه وقال في {الرسالة} الخوف قُوَّةُ العلم بمَجارِي الأحكام وقيل الخوفُ حركة القلب لجلال الرب وقال عن {إبراهيم بن شَيْبَانَ} إذا سَكَن الخوفُ القلبَ أحرق مواضع الشهوات منه وطرَد رغبة الدنيا عنه وفيها قال {ابن الجلاء}

الخائف من تأمنه المَخوفاتُ وقيل ليس الخائف الذي يبكي ويمسح عينيه إنما الخائف من يترك ما يخاف أن يُعَذّبَ عليه.وفيها سمعتُ {أبا عثمان} يقول صِدقُ الخوف هو الوَرَعُ عن الآثام ظاهرا وباطنا وقال {ذو النون} الناس علي الطريق ما لم يزل عنهم الخوف فإذا زال عنهم الخوف ضلوا عن الطريق انتهى منها. {قلتُ} وقد اختصر {شيخنا} المُتَرْجَمُ عن خوفه رضي الله عنه جميع مقالاتهم ببيتين من تائيته [141] في وصف القوم وهما

*

*

فإن الخوف في المريدين يُكسبهم المحاسبةَ والمُراقبةَ والورعَ ويتداركون ما فات بالوجل والتوبة ويلهجون بالاستغفار إلي أن ينتهي أحدهم إلي المُشاهدة والأنس فتغشاه الهيبةُ من الإجلال والتعظيم بمَزيد العلم المقتضي لحال الخشية العُظمى فهو رضي الله عنه من طمأنينته وسكينته مَقضي الحاجات بالروض والبسط ربَّاه ربُّه فأحسن تربيتَه علي قيادة مَخدومه بسنته بأنواع الابتلاء فهربَ إليه وسكن له واطمأنَّ به فخلَّاه عما سواه ثم رقَّاه بالبسط والأنس وحلَّاه بزينة اتباع محمد صلي الله عليه وسلم فاستقر عنده واستراح {في مقعد صدق عند مليك مقتدر} قال في {المواهب اللدُنيَّة}: والإجلالُ تعظيم مقرون بالمحبة فالخوف لعامة المؤمنين والخشية للعلماء العارفين والهيبة للمُحِبِّين والإجلالُ للمقرَّبين وعلي قدر العلم والمعرفة يكون

الخوفُ والخشية كما قال صلي الله عليه وسلم {إني لأعلمُكم بالله وأشدُّكم له [142] خشية} رواه البخاري وقال صلي الله عليه وسلم {لو تعلمون كما أعلم لَضَحِكْتُم قليلا ولَبَكَيْتُم كثيرا} رواه البخاري من حديث أبي هريرة وفيه دِلالة علي اختصاصه صلي الله تعالي عليه وسلم بمعارف بصريَّة وقلبيَّة وقد يُطلِع الله تعالي عليها غيرَه من المُخلصين من أمته فهو رضي الله عنه لم يستغرق قط ضَحِكًا إلا إذا كان في التذكير بألطاف مولاه بعباده وفي الترغيب بذكر آلائه وجَنَّتِه أو في الهُزْءِ والسُّخرية لأعداء الله تعالي ومكائدهم حال من حال مخدومه صلي الله تعالي عليه وسلم قال في حديث ذكر الجنة وحديث الجهني {ضحك حتى بدت نواجذُه} أما للمضاحك عادة فلا وينقبض إجلالا لمولاه وتعظيما لحضرته التي لا يغيب عنها هذا في الحقائق، وأما في الخلائق فإنه رَاضَ له الأعمالَ الصالحةَ فامتطاها إلي جِنانه ونزله وراض لأجله المكاره والمحظورات فانمحت عنه قال:

*

*

ومن الغُيَّبِ ثواب الأعمال ومنها مواطن الجنان والخصائص [143] الموهوبة التي لا تُحدُّ ولا تُعَدُّ من الفضل العظيم ومنها ومنها ومن المكاره محظوراتُ الشرع ومنها الشكوك والأوهام ومنها المكر الخفي والشرك الخفِيُّ ومنها تعَبُ ثِقَل العبادات والكسَلُ في

الأوقات هذا عبدٌ أكرمه الله تعالي باختصاصه برحمة بمشيئته فضلا بلا اكتساب ثم أكرمه بإقامته في الاستقامة علي جميع أوامره مذ عقل إلي أن انتقل كَسْبًا أكسبه إياه تشريفا له بأنواع الفخر ثم أحيا به ظاهرا ما كان في أستار الخفاء بالنسبة لِما بلَّغه إليه بسببه وهو خِلَعُ مزايا سيد الوجود عليه الصلاة والسلام التي كان يتبختر بها فتُشاهِدَ عِيانًا بَعْدَ ما كانت مطويَّة في بطون الصُّحُف وصُدُور الأئمة من أخلاق وأعمال وأحوال ومواهبَ حِسِّيَّةٍ ومعنويَّة تُفحِمُ الجاحِدَ وتُفضِحُ المُعانِدَ كان حَبُّه في القلوب وجلالته وهيبتُه وإيناسُه علي حدٍّ سواء فبُدُوُّ الغيب له حقَّق تقواه من ثبوت يقينه ووُضوحِ إيقانه كان من خشيته مُسَدِّدَ العين لمواقع مرضات ربه بمِنظار متابعة مخدومه صلي الله تعالي عليه وسلم في الأخلاق والأعمال والأحوال فكان خوفُه اللهَ يُؤَمِّنُ منه كلَّ مُحترَم وتقواه يُقوِّيه فيخافُ منه كلَّ محروم وما أمَّنَهم منه إلا عَدْلُه المعروفُ وخشيتُه اللهَ وورعُه الموصوفُ كما قال الشاعر [144] لأميره:

*

كان ضِعافُ المسلمين يتجرَّءون علي مخاطبته بكل استئناس ويُطالبونه بحوائجهم كدَيْنٍ حَلَّ أجلُه وصِبيانُ المدارس وضُعفاء العجائز يأوون إلَي كنفه كالأم الحنون والوالد الشفيق يقوم بلوازم الجميع ويتفقَّد أحوالهم ولا يصبر علي أن يؤدِّيَهم أحدٌ أمامه وإذا سمِعَ صارخا هو أول من يهتم بإغاثته وهو علي هذا شُجاعٌ متهوِّرٌ إذا سِيمَ جانبُ الله ودينُه خَسْفًا يتجرَّأ علي الملوك ويُجاهِرُ بعقيدته عندهم ويُقاطعُهم الكلامَ إذا حان وقتُ الصلاة ولا يئِنُّ لوَجَعٍ ولا يأخذ بالرُّخَصِ عند الأعذار إنما يتشرَّدُ ويقول الحق عند وُلاة الأمور ويَصدُق عند المِحَن ولا

يَعرِفُ التوريَةَ ثم يحتزِمُ ويقول لا تأخذوا علي ألسنتكم بمثل ما آخُذُ به علي نفسي ويُوصِي علي مُراعات الشرع الشريف في العمل بالرخَص عند الأعذار أتيتُه يوما وبيَ عُذرٌ من مسّ الماء للطهارة فشاورتُه عليه فقال لي: أن اترُك الماءَ ما دامَ بك ومتى علِمْتَ بإبْلالٍ فعَاوِدْهُ ولا تتركه بالمرة وتقول أنا من أهل مرَضِ البرْدِ لا أمَسُّ الماءَ لكن جَرِّبْ ودَاوِمْ علي التجربة ومهما قَدَرْتَ فتَطَهَّرْ مع أنِّي أعرِفُه يَتَوَرَّمُ بعضُ أعضاء وضوئه ولا يَمُرُّ به وقتُ صلاةٍ بغير طهارة فلابُدَّ من وضوءٍ يُدلِكُ به العضوَ السَّقيمَ كالصحيح فتَعْلَمَ أنَّ من العباد [145] من يسلم لهم ذَوقُهم فهو لو أراد غيرَ ذلك لما طاوعه عليه قلبُه كان يقول لو وجب عليَّ الكذبُ لما أمكنني ولا يؤخذُ منه أنه يتعمَّد تركَ واجب لصفة فيه فهو مُكرَمٌ عند الله إذ في صدقه عند ذ لك المَوطِن ينجو به ويُنجِي كرامة من الله الكريم شاهدناها مِرارًا ولكنه لا يَدخُل في هذا من لم يقم في مقامه.

ومن شواهدها أنه وقعت خُصومةٌ ماليَّة بين غلماني وبين رجل أدلى ببعض الفُسَّاق إلي الحُكَّام حُجَجًا قويَّةَ الظاهر واهيةً في الحقيقة ثم أسندها إليَّ حتى حكموا لمعاندي عليَّ فلُقِّنتُ بعضَ حُجَجٍ علي طريق مقابلة الخصم بالمثل وحين مرت {بشيخنا رضي الله عنه} سألني عن الحال وأخبرته فقال لي اذهب إليهم إذا نُوديتَ ولا تقل إلا حقا.

انظر هذا وأنا الغلام الغِرُّ إذ ذاك وما كان لي ذلك برأي ولكن ما ذا أفعل مع حَذَامِي إلا القول بقولها والحالُ أني ذهبتُ وأوقفوني موقف أحدِ الخصميْن الذي صاحبُه ألحنُ بحجَّته منه فأوجزتُ الكلام فقلت ما أعرف علي حين كان الحاكم يستشيط غضبا فرأيته حين أتممت كلامي يتصاغر قليلا قليلا حتى رجع إنسانا يتثبَّتُ فعرف

لي الحقَّ وحكم ببراءتي فحمدت اللهَ تعالي وعلمتُ أن هذا من بركة {شيخنا رضي الله تعالي عنه} وصولةِ الحق فاتخذته بحمد الله عادةً علي عجزي وضعفي وعوَّدَني الله عونَهُ ونصره فلا يزال وبنعمته تعالي تتِمُّ الصالحات.[146]

ومنها ما جرى لأحد إخوته السالكين في طريقته المنتفعين ببركته بارتفاع الدرجات كثيرا وهو مُخاصَمةٌ شديدة وجدال عنيف كان يطالب فيها حاكم قرية {انجُرْبِلْ} أقاربَه بإثبات حُجَّته عليه وفي ثبوتها عندهم عقوبةٌ شديدة وهي ما كان يريد الحاكمُ الفَظُّ الغليظ فوَرَّي له الأقارب وذكروا خلاف ما هو الحق عندهم لإنجائه عاملين في ذلك بما يجب من إنقاذ مسلم أما {شيخنا رضي الله تعالي عنه} الذي يقول الحاكم أنه هو المرجِع في ذلك إذا ردَّت إليه الحكومة العليا الحكمَ لنفي شهوده ما أثبت قال إنه ما عرف وتبرأ من غير ذلك بعد ما التجأ إليه أخوه وشفَّع فيه أقاربَه الكبار المحترَمين عنده كل الاحترام وأبى عليه وعليهم وأنه ليس ممن يخاطِبون بهذا إلا أنه وعَدَهم وعدا حقا أنه لا ينجو أخوه بتلك الحُجَج إنما نجاته تتسبَّبُ من صدقه فقط فكان كما قال آل الأمر إلي العفو عن الأخ والضرب عن جميع الدعاوى صفحا برأي الحاكم العام لـ {دَكَارْ} الذي قال إنه يستحيي من أخي هذا الشيخ الذي ساموه في نفسه وفي قومه بكل شدَّةٍ وفتنة بلا حُجَّة ولا ثُبوت شيء مما خُوِّفُوا به منه فلا ينبغي من مروءة الدولة أن يُحَرِّكُوا له ساكنا مع كونه لا تحْمله الشفقةُ علي نفسه ولا علي أقاربه إلا علي الصدق وقول الحق ولو كان مُرًّا فانتفى الخوفُ وشمَلَ [147] الأمنُ فكان هذا اليومُ من دلائل {هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم} جزاه الله عنا خيرا آمين أما نقل الأقدام إلي الجماعة

فهو ما كان دينُه وشُغْلُ قلبه المقدَّم علي غيره فلم يُعرف من حاله الصلاةُ إلا في الجماعة ولا الجمعُ إلا في المساجد فمِنْ صِغَره حين يُصاحِبُ {الشيخ} الوالد في المُقام والرحيل لتعليمه ولحوائجه لا يصلي إلا مع الجماعة ومن زمَن التكليف اتخذه أبوه وأقرانُه من العلماء كـ {القاضي مَجَخَة} {والقاضي مُورْ خُمَّهْ} {والشيخ سيد خُوَيْه} إماما للصلاة وهو غلامهم المتعلِّم منهم ولكن اختاره الله لما ظهر عليه من دلائل التقوى من ورَعِه وانقِباضِه واجتماعِ هِمَّتِه وحِرصِه علي العلم وكثرة مُراقبتِه للوقت حتى أسندوا ذلك من جملة ما أسندوا إليه من اشتغالهم الكثيرة فهو المعروف من بين مَعارفه القدماء في الصِّبا حتى الكُهُولة والشيوخة بالإمامة المتَّفَق عليها من ذوي التحقيق التي سلموها لها لا عن رغبة أو تطلُّع ولكنه جَدَّ فسَبَقَ وسارَعَ فوفِّقَ وهكذا عاش مغتبطًا بإقام الصلوات في الجماعات تابعا ومتبوعا إماما في الكل برضَي الجميع وطيب خواطرهم حتى أني أحفظ أن آخر ما شغل به مريديه القائمين بأبنية داره وإصلاحها المتنائية أن يشُقُّوا له طريقا من أخريات الدار المترامية الأطراف والممتلئة من البيوت والعرصات يؤديه إلي المسجد بلا انحراف [148] عن سَمْتِ الباب الذي يدخل منه وأوصى في عشية ذلك اليوم بعد صلاة العصر آخر خطبة خطبَها وآخر مُخاطَبَةٍ أيضا وآخر عهده في الدنيا ومعاملة أهلها التحَقَ بعد صبيحة تلك الليلة ليلة الأحد التي هي آخر ما صلى في المسجد وآخر حِسِّه بالدنيا بنحو يوم بالرفيق الأعلى قال وصَدقَ محسنا في المقال:

*

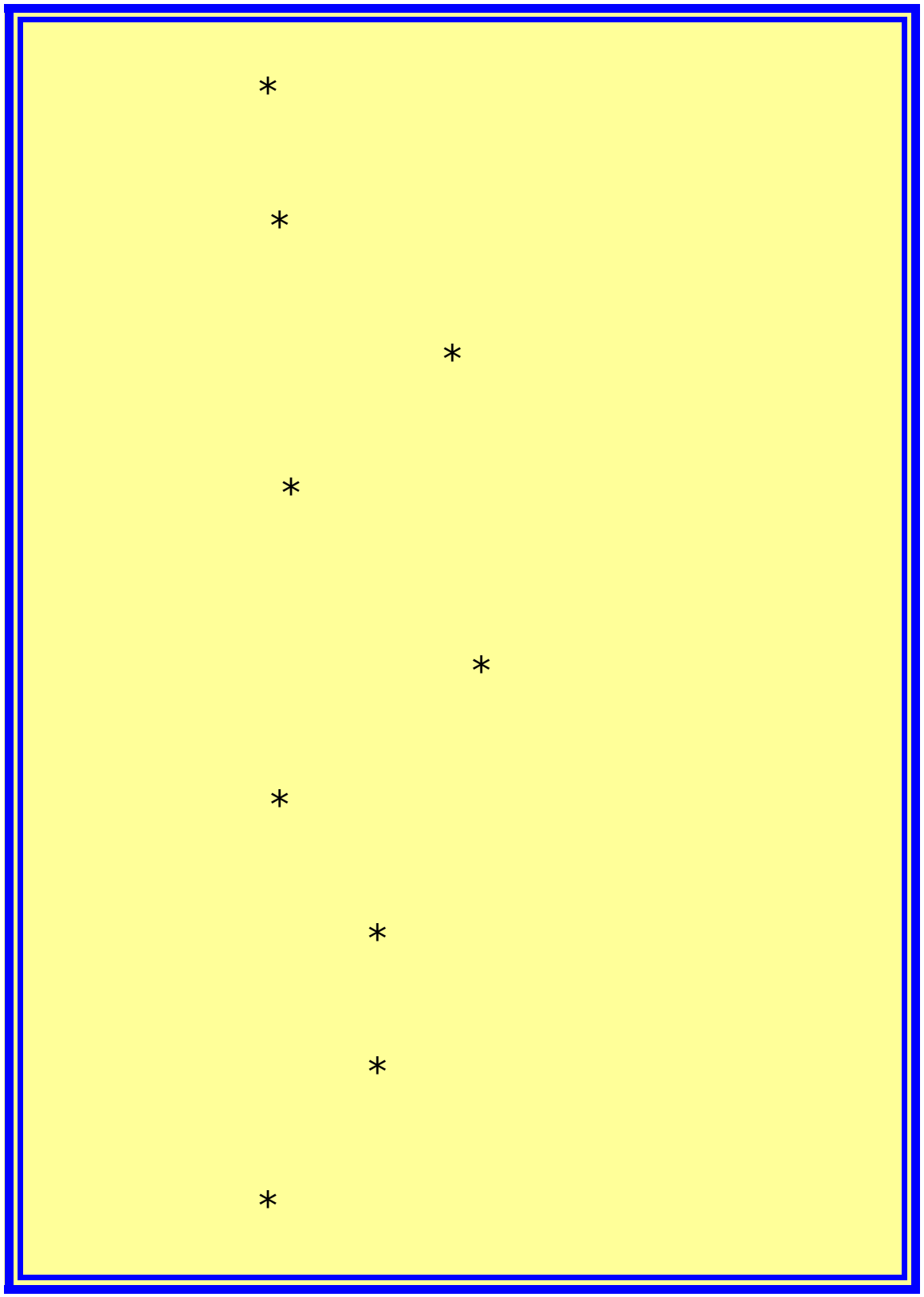

*

*

هل تجسَّم لك فحوى الكلام فعاينت مبلغ اغتباطه بقرَّةِ عينه [149] الصلاة لأول وقتها بشروطها بأفضل حالاتها وكيف بنى الصُّروح العظيمة من الشكر اللسانيّ والقلبي علي الشكر العلمي من ثمرة تقواه بمشاهدة الأوصاف الكريمة التي هبَّ عليه رَوْحُها ورَيْحانُها لينزاح عنه تَفَثُ الخدمة وغُبار المجاهدة لتحققه بجلائل الخشية واتصافه بمقتضى التقوى فإنه رضي الله تعالي عنه من ثمْرَةِ علمه بالله يتنسَّم من نصب العبادات روائحَ روضات الجَنَّات فلذلك حيث تكون في العبادة قرَّةُ عين العبد إذ بها تُستكمَل اللذَّاتُ التي تُقَصِّرُ عنها أيدي المنغِّصين وسهامُ المكدِّرين قال صلي الله عليه وسلم {وجُعِلت قرَّةُ عيني في الصلاة} إذ بها لذَّة مناجاته تبارك وتعالي التي تصير كلُّ لذةٍ دونها بالنسبة إليها هباءً منثورا لكلٍّ بقدر مقامه ومقدار تحقُّقه من ميراث سيد الوجود العبد الشكور صلي الله عليه وآله وصحبه وسلم فكان هذا {العبد الخديمُ} من أوفرهم نصيبا منه لصدق تأسِّيه وحُسن اتباعه وخلوص محبته التي بيَّنته تقيُّدُه بالسنة وجدُّه في المتابعة وقَوَّتُه في الاستقامة وتوفيقه بتيسير جميع أسباب الاختصاص من استعداده لقَبُول الواردات وصِدْقه في الإخلاص قال في الاغتباط باتباع السنة حين أماط عن قلبه حُجُبَ الوسائل:

*

[150]

*

*

*

*

أما انتظاره الصلاة بعد الصلاة فهو رباطه طولَ عُمره كان رضي الله تعالي عنه لا يحويه مكانٌ ولا يغشاه زمانٌ إلا وهو عند ذلك في أي مكان مراقبا للوقت ومنتظرا للنداء أما المؤذِّن الأمين فلا يفارقه في حضر ولا في سَفَر من الأسفار وهو مستريح من جميع المُؤَنِ بما تكفَّله له سَهَر الشيخ علي حاجياته وكمالياته من كل نوع ومهما بالغ المؤذن في مراعاة الوقت ومراقبته فلا بُدَّ له في كثير من الأوقات أن يأتيَ المسجدَ والشيخ قد سبقه حتى أنه في أواخر زمنه فتحَ كُوَّةً من المسجد لكثرة جلوسه فيه ليتلَقَّى الناسَ بها علي كثرتهم وكثرة زحامهم من كل جنس من أجناس من بين مريدٍ وزائر وسائل ومُستفتٍ ويَقضِي حاجات الجميع في الأَوْيْقَاتِ التي يطلع عليهم فيها حتى يظنَّ كلٌّ أنه وحده المختص به من بشاشته الرائقة وبذله الفريد الزائد وعجيبِ فضله للأمور وتفصيله مع قِصَرِ أويْقاته معهم وما هو إلا

نُزول وما هو إلا نزول [151] البركة عليه في كله وإلا لما كان يقوم بما يُطيبُ خواطرَ هذا الجمع الكثير والجَمّ الغفير المتزايد من كل بلدة ونحلته مدة عمره ولكن البركة إذا نزلت في قليل كثرته وما هي إلا ما كان لوجه الله كان من تقواه واستقامتِه ساكنا بجانب المسجد وعِبارتي بالسُّكون تَجَوُّزٌ فإنه ما اتخذ بيتا لمبيتٍ أو فِراشًا لنوم إنما هي علي كثرتِها وبهائها من هدايا المُثرين من مريديه ما أعِدَّتْ إلا للمصاحف وكُتُبِ العلم كان يقول لأولاده لولا أني أخشى عليكم كثرة النوم واعتياد الراحة لأعطيتكم هذه الفُرُشُ، كان جلوسه علي التراب واستراحتُه القليلةُ علي فُرُشِ الخَشَبِ القاسية وأكثر ما يستعمل منها أيضا كلَّ ضَيِّقٍ قصير قاس وما عسى أن يعطي لنفسه من الراحة من يؤثر هذه. قال لي {عبد الودود ابنُ سِيدِ عبد الله} العالم المتبع أنه كان مع {شيخنا رضي الله عنه} يوما وبجانبه فراشٌ لِيّن حسن وهو جالس علي الأرض بغير وِطاءٍ والبراغيثُ تتواثب عليه فجعل يمسُّ الفراشَ ويستهزئ به يقول نعم أنت لِيّنٌ ولكن فُرُشُ الجنة ألين منك وكان لباسه رضي الله عنه خشن وذواق مطعمه أخشن منه ذلك بأنه {خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى} وهذا قلٌّ من جُلٍّ من آيات آثاره رضي الله عنه.[152]

أما آثاره في الدرجات التي هي إفشاء السلام وإطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام كان رضي الله عنه لا يمُرُّ بمسلم إلا وسلَّمَ عليه ولا يُسافر إلا ويزور في كل بلد أتاه أعيانُه وما الأعيانُ عنده إلا العلماءُ والصالحون أنما أبناء الدنيا فقلَّما يدخل بلادَهم إذا علِم مَندُوحةً عنها وإنه في أول أمره قبل كثرة الخلق عليه كان كثير الأسفار لزيارة إخوة الإسلام والعلماء ولزيارة مقابرهم

وكان يسافر كثيرا أيضا كذلك لتعزية أخ ولما تعذر عليه السَّفرُ من خوف الدولة من حركة الخلق لأجله إذ تحَرَّكَ صار يُرسِل الرُّسُلَ لعيادة المَرضَى التي كان كثيرا ما يعتني بها وللتعازي ولتفقد أحوال الأقارب ويُرسِل الهدايا الكثيرة والصدقات للمحتاجين ولإخوةِ الدين وللمتعفِّفين من أهل المروءة من الأقارب والمَعارف.
أما إطعامه الطعام فحدِّثْ عنه ولا حرج كيف لا يُعمِل فيه العجب والعجاب وهو أمر مُرَغَّب فيه في الشرع الذي هو مقتنصُه مع القدرة الكاملة عليه والباع الطويل كانت الصِّحافُ المُلفَّفَةُ يُطافُ بها علي الضيوف والجيران وبيوت الضعفاء والعجائز في الليل والنهار بالكثرة الفائقة والغلمانُ مبثوثون في نواحي القرية هذا يذهب إلي فلان وهذا يُنادي فلانًا وفلانا وهذا يجمع فلانا مع فلانٍ وفلان وهذا عمل متصِلٌ لا ينقطع [153] صيفا ولا شِتاءً بأنواع الألوان والمشتهيات فضلا عما يُذبَح من البقر والغنم ويُنحَر من الإبل في كل ناحية لطوائف شتى كيف لا وهو المسخَّر له الدنيا المسوق له إياها صاغرة بحذافيرها وهو أزهد زاهد في رغائبها بقدر ما يرغب فيما عند الله الذي يقول وقوله حق أنه ما طلب إلا إياه ولا يطلب في المستقبل غيرَه قال رضي الله تعالي عنه وأرضاه

*

أما صلاته بالليل والناس نيام فهو رَبْعُ عزته كما قال فيه شاعره محمد بن المختار بن المعلى الحسني وأجاد:

*

*

وكما قال فيه {عبد الله السالم بن الأمين بن الشيخ} مريده العالم التقيُّ النبيل رحمه الله تعالي

*

[154]

*

*

وقال فيه وقال فيه مم لا يُعَدُّ ولا يُحصَى وهذا مما يوقفك علي كُنْهِ عبادته وقيامه عن ألسن الشعراء المختلفة وأوصافه المتكررة في حياته الدنيوية والأخروية في مدائحه ومراثيه وقد مر بك في باب الصبر كيفيةُ إحيائه الليالي وفي الأسطر التي جرت في بعض الفصول والأبواب التي دعت إلي ذكر بعض ذلك داعية فيها فلا موجب لتكرارها وقد لا تغيب عن ذاكرتك في محالِّها إلا أني آتيك بالشواهد عليها من قلمه الماخر في بحور مناجاته التي يغوصها ويعوم فيها وحده وشاهده مولاه المخاطَب ولا يطلب شاهدا سواه قال في الشكر والاغتباط بموهَبَةِ لذةِ العبادات:

*

*

*

*

*

*

*

*

إلي آخرها.
فليالي حياته رضي الله تعالي عنه ليال مباركات لم تزل توافيه متهيئا كامل التهيئ لفرائض ربه كامل الاستعداد لسنن مخدومه المصلي عليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ مُجمِع الهِمَّة في نفي الشريك عن كله لمولاه وتجريد التوحيد لَه جل وعلا قال:

*

فالليل هو ربيعه إذ به تصفو له الأوقات ظاهرا كما تصفو له باطنا في غيره فيستريح راحة تامة ويسكن سكونا عامًّا في روضات جنات العبادات وقُطوفِ ثمارها من لذائذ المناجاة فلا تجده في أخريات الليل إلا وتجد بَوَارِقَ النور القدسي تنبثق بين أسارير جبهته وتلمع في أسرة وجهه من ما نفذَ فيها من نَضِرِ نعيم بصيرته في عكوفه علي ظاهر بِشْرَتِه وبصره وما تقول فيمن اغترس في جِبِلَّتِه من أعماق قلبه تأصُّل قيام الليل من عادات الصالحين وهو في العشر الأول من سني عمره يقوم الليل تأسِّيًا وليس له من المعرفة العادية إلا ما يسمع من [156] والده من أن قيام الليل دأبَ الصالحين فمن ثمَّ جُبِلَ عليه فصار ديدنه انظر ما يقول في أول تعلمه العلم إذ راودوه علي الاكتساب ولوَّحُوا له في مدارات الأمراء من قصيدة له رضي الله عنه:

*

كيف لا يتخذ الليل ربيعا من يشاهد سرمدا يد ربه ممدودةً بيضاء في الليل ليتوب مُسِيءُ النهار سَحَّاءُ الليل والنهار وعرف يقينا أن ربنا ينزل كل ليلة إلي سماء الدنيا فيقول هل من داع فأستجيبَ له هل هل فكيف لا يتخذ الليل رِبْحًا من يُعَمِّر عمرَه بالقرآن وتَحيى جوارحُه بالعمل به ويُصَفِّي أوقاتَه باتباع محمد صلي الله عليه وسلم ويستقي من زُلال مناقبه عليه الصلاة والسلام وسيرة صحابته الكرام قلبا وقالبا في جميع حياته كيف لا يكون ليله نورا ونهاره ضياءً من اقترانه بالداعي إلي الله السراج المنير وسُلوكه سبيل أصحابه

معه بكل ما صح معناه واتضح مبناه بعناية اللطيف الخبير.

{الباب السادس في زهده رضي الله عنه}

المُنشَدُ فيه بلسان حاله رضي الله تعالي عنه:[157]

*

قال في {القوت} مقام الزهد ووصفُ أحوال الزاهدين وهو السادس من مقامات اليقين قد سمَّي الله تعالي أهل الزهد علماء بقوله تعالي إذ وَصَف {قارونَ} {فخرج علي قومه في زينته} إلي قوله تعالي {وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن} قيل هم الزاهدون في الدنيا وقال عز وجل {أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا} وجاء في التفسير صبروا علي الزهد في الدنيا وقال جل وعلا {والملائكة يدخلون عليهم من باب سلام عليكم بما صبرتم} قيل علي الفقر إلي أن قال بعد كلام طويل في ذكر ماهية الزهد فقد ذكر الله جل اسمه: أن الدنيا سبعة أشياء وهو قوله {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِن النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ} إلي أن قال فعلمنا بنص الكلام أن الشهوة دنيا وفَهِمنا من دليله أن الحاجات ليست بدُنْيًا لأنها تقع ضرورة فإذا لم تكن الحاجة دُنيًا دَلَّ أنها لا تُسمَّى شهوةً وإن كانت قد تُشتَهى لأن الشهوة دنيًا ولتفرقة الأسماء لإيقاع الأحكام إلي أن قال في وصف الزاهد وهذا الفصل هو ما يهمُّنا لإيضاح اتصاف

المترجَم له بأعلاه قال وبه تظهر صِفةُ الزاهد [158] وفضل الزهد فوصف الزاهد الذي ينفصل به عن الراغب هو أن لا يفرَحَ بعاجلٍ موجود من حظ النفس ولا يحزَنَ علي مفقودٍ لذلك وأن يأخذَ من كل شيء عند الحاجة إلي الشيء ولا يتناولَ عند الحاجة إلا سَدَّ الفاقة ولا يطلب الشيء قبل الحاجة إلي أن قال وخالص الزهد إخراج الوجود من القلب ثم إخراج ما خرج من القلب عن اليد وهو عدم الموجود علي الاستصغار له والاحتقار والتقالُلِ لهوان الدنيا عنده وصِغرها في عينه فبهذا يتم الزهد ثم يَنسَى زهدَه في زهده فيكون حينئذ زاهدا في زهده لرغبته في مُزَهِّده وبهذا يكمل الزهد وهذا لبُّه وحقيقته وهو أعَزُّ الأحوال في مقامات اليقين وهو الزهد في النفس لا الزهد لأجل النفس ولا للرغبة في الزهد للزهد وهذه مشاهدة الصدِّيقين وزهد المقرَّبين انتهى بلفظه.

وحين ما وقفتَ علي ما عدَّه المؤلِّف {الشيخ أبو طالب} عن القوم أن الزهد أعزُّ الأحوال في مقامات اليقين فتتبَّعْ بمِقدار حَظِّك من معرفة {شيخنا رضي الله تعالي عنه} سُلوكَه في تصرُّفاته في حاتي الفِقْدَانِ والوِجدان تجِدُه مثلا أعلي لعباد الله الصالحين في إدباره عن الدنيا وإقباله إلي الآخرة بل في فنائه عما سوى الله وبقائه بالله يشهَدُ لذلك أنها لا تخطُر له ببال إلا إذا ذُكِرَتْ أو تصرَّفَتْ له في ثوب حال من الأحوال فيراها أقْذَرَ [159] خبيثٍ وأخبَثَ رِجْسٍ.

نادى رجلا يوما فلباه بلقبِه فتأفَّفَ وقال والدنيا الذميمة مضى زَمَنٌ ما كان الناسُ يبتهجون بلَقَبِ أحدٍ كابتهاجهم بلقب الأمير فُلانٍ ولم يلبثْ شيئا حتى صار كأن لم يكن خُبْثًا خُبثًا لها.

وكان ذات يوم يخرُج للقاء الناس فتحرَّكوا وماجوا للتطلُّعِ له وتحَرَّكت الخَدَمَةُ والبناءات إذ ذاك تبرُق وسناؤها يشرُق وبهاؤها ينطِق فقال هذا كلُّه عن قريب يصير نقضًا وعُروشًا خاويَةً كأن لم يكن فعلمتَ من هذا التغيُّرِ والتَّبرُّمِ المُباغِتِ أنه ما كان للدنيا عنده وجودٌ إنما يشغُلُهم ويحرُس ما يَحرُسُ لله كالخازن لأوان ورود أمر مالكه كما قال في {القوت} وقد يصِحُّ الزهدُ للعارف مع وجوده عنده إذا لم يقتنه لمُتعَةِ نفسه ولم يتملَّكْه ويسكنَ إليه بل كان موقوفا في خَزانة الله سبحانه وتعالي التي هي يدُه منتظِرَةً حُكمَ الله فيه ومِحنة ذلك استواء وجوده وعدمه والمسارعةُ إذا رأى حكمَ الله إلى تنفيذه فيكونَ في ذلك كأنه لغيره ثم قال وهذا المقام زائدٌ علي الزهد فكذلك لم يخرج منه بل كان مخصوصا منه بخصُوصٍ وهو مقام من التوكل قلت هذه مَبْشَرَةٌ لي علي عَرَجِي بموافقة العلماء فإن هذا المعنى ذكرته مرات في المقامات كلما عَرضَ ذِكرُ تصرُّفٍ {لشيخنا رضي الله تعالي عنه} أو وصفُ حال من أحواله في التهافت إليه وترادف النعَمِ له [160] وما ذاك الإلهام إلا قيام هذه المعاني في القلب عند التفكُّر في حاله لا عن تَرَوٍّ وفِكْرٍ ولا لمُجرَّدِ صَوْغ جُمَلٍ وتنسيق كلام قال في {الرسالة} عن {الثَّوريِّ} الزهدُ في الدنيا قِصَرُ الأمل ليس أكلُ الغَليظِ ولا لُبْسُ العِبَاءِ وفيها عن {الجُنَيْد} سمعتُ السَّريَّ يقول: إن الله سَلَبَ الدنيا عن أوليائه وحماها عن أصفيائه وأخرجها عن قلوب أهل وداده لأنه لم يرضَها لهم وفيها وقيل الزهد من قوله سبحانه {لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ} فقِصَرُ أمل {شيخنا رضي الله تعالي عنه} لا أدَلَّ عليه من رفضه الأسباب فلم يقتن عَقارا ولم يبن دارا ولم يُرَبِّ حيوانا ولم يُحاول سلطانا مع سُهولة هذا عليه لتدفُّق الأموال علي مَجالسه من الآفاق فإني أتذَكَّرُ من تهاوُنه بالمال

يوما أهدَى له مريدٌ أوعيةً ثقيلاتٍ من الدراهم النقديَّة
فأمر به فسُحِبَ عن مجلسه فأمر أن تُصَبَّ علي التراب
فأخذ التلامذةُ لوحًا من {سِنْكَ} فكوَّموها عليه أطباقا
سُودا من كثرتها فكان يمُرُّ بها في طريقه إلي المسجد
ولا يبالي إلي أن أته زوارٌ من السائلين المحرومين
فقسَّمَها بينهم بحسب ما ألهمه ربُّه في كلٍّ وهذه قِصَّةٌ
لا مفهوم لإيرادي لها من بين أمثالها الكثيرة مدة أيام
حياته المتكررة تكَرُّرَ شآبيب هدايا مريديه أرباب الثروة
والأموال الطائلة من جليل مواهبه أما قول الجنيد رضي
الله تعالي عنه فهو أدل [161] شيء علي خصوصية
{شيخنا عليه الرضوان} فإن سلب الله الدنيا علي قلبه
وحمايته عنها ظاهرٌ للعيان من ما أقبلت الدنيا إليه من
أول أمره مما خزنت من المال وضنَّتْ به من الجاه فإن
سَوْرَتَه في القلوب لا مثل لها وهداياه كذلك وما هو إلا
جِدُّ فارٍّ عنها ومتنكِّرٍ لها يكرَه التزيُّنَ ولا يريد التنوُّق
ويُنكِر ذاتَه ويؤثر الخمول عند الأمراء بقدر ما يعمل
لإعلاء كلمة الله وإظهار دينه وذلك ما أفرده عن الخِلان
والأصحاب إلا ما كان لله وفيه تبارك وتعالي من أول
نشأته فظهور خصوصيته بكلام{ الإمام الجنيد رضي الله
عنه} أن السلب لا يتحقق إلا عند الملابسة الحمايةُ لا
تظهُر إلا بعد المراودة فهذه دنياه أول نشأته أحاطت
عليه بزخارفها فهو يجاهدها بتمزيقها وطردها والفرار
منها حتى انزوت عنه ثم تسلطت عليه بأنواع بلائها
ومحنتها فأحسن هو رضي الله تعالي عنه العَمَلَ لمولاه
صادقا في قمْعِ هواه وظهر بعضُ ذلك من تسلط أبناء
الدنيا عليه فأجلبوا عليه بخيلهم ورجلهم وتألبوا فلم يبق
نوع من البليات إلا أوقعوه أو حاولوه أخرجوه من
متعبَّده في {جُلُفْ} وغرَّبوه إلي الجزائر المظلمة
تغريب من لا يُراد أن يرجع وشتَّتُوا جموعه وهدَّدوهم
بالقتل والحبس وهو في نفسه فريد من بنهم ما آلوا

جهدهم في النِّكاية به في [162] بدنه وعرضه ثماني حجج إلا قليلا فأبى اله إلا أن يتم نوره ورجع واجتمع قومُه فما وطئت قدمُه أرض {سينكال} حتى تقصَّفت عليه سُعداءُ الملة والتفُّوا وما زال أكثر من عشرين سنة تندفِعُ سُيول الأموال لجنابه وتهوي أفئدة الأخيار لجانبه يُهدَى ويَهدِي لأمر ربه علي سنة نبيه صلي الله تعالي عليه وسلم فما من أمير أو إمام زاوية أو شيخ تعليم أو تربية إلا وتتسلَّلُ كلَّ عام أفواجٌ كثيرة من نُخَبِ رجالها للانضمام إليه والتعلُّق به شَهادَةَ عِيان لا يُكابر في إنكارها مُكابِرٌ من كان شاهدا فما في الغُربة أراد غيرَ الله ولا رأى سواه ولا في الأوبة يُجاور إلا إياه معمورَ القلب بذكره تعالي وشكره مشغولَ الجوارح بطاعته فكان مثلا أعلى للأكابر عليهم رضوان الله تعالي في مقتضى الآية من قول صاحب {الرسالة} وقيل الزهد من الآية {لِكَيْلا تَأسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ} فشهادة زهده علي حدود هؤلاء الأئمة شهادةُ عيانٍ لمن حضر والتواتُرِ لمن غاب إن أنصَفَ وقال في {الرسالة} عن النصر أبَاذَى من زهد في الدنيا أتته الدنيا راغمة وقال {يحيى بن معاذ} الزهد يُورث السخاء فلا مرية في وقوع هذا له قطعا رزقنا الله حسن الإقتداء به وأورثنا بركة اتباعه وخصوصَ مواهبه وأقوى برهان هذا الحبُّ في الله والبغض فيه لأنه لا يتصف بهما [163] الإنسان حقيقة بلا شائبة إلا إذا عَمِيَ عما سوى مولاه وانعدم عن ذاكرته ما عداه فإليك مثلا أعلي للزاهدين في شخصه وسيرته رضي الله تعالي عنه قال:

*

فإن أقوى شهادة علي ذلك موقِفُه بين سُوقَي الدين والدنيا الذي لم يتزحزح عنه لحظةً مدة حياته والأولى أبناء الدنيا وأربابُ دُوَلِها الثانيةُ أبناء الآخرة مُهيِّئوا أسباب عُمرانها فإنه عاش رضي الله عنه مشغولَ الجَنابيْن بحُكَّام الدنيا من الأمراء المتسلِّطين وحُكَّام الدين البُلَهِ وكلِّ ضعيفٍ مستضْعَفٍ من المحاويج والمساكين من المسلمين وأشهر الجنسَيْن تميُّزًا بالأوصاف حُكَّامُ الدنيا من الإفْرَنْج وخُدَّامُ الدين من البياضين فإن الإفرنج بجملتهم العامَّة علي الأقطار وغلَبَتِهم علي أهاليها حملوا معهم إليهم كلَّ وسائل التنعُّم والرفاهية التي ما كانت تخطُر ببال من لم يعرفْهم وحازوا من أسباب الرُّقِيِّ المعنويِّ في درجات العِزِّ والسُّمْعَة الدنيَوِيَّيْنِ ما لا يُحسنه إلا هم وصادفوا هذا {الشيخَ} ابتسمت الدنيا في وجهه بثغْرٍ لم تَفتَرّ عنه لغيره من بين أهل عصره فكان زَنْدًا صادفَ مَرَخًا وعَفَارًا لمن يُريدُ عِمارة الدنيا والأخذ بيد أهلها قابلته الدولةُ الجديدةُ [164] كالقديمة قبلها بصُدُورٍ رَحْبَةٍ وضَمَائِرٍ نقيَّةٍ لو قد اشتركوا وُجهَةً أو اتفقوا غَرَضًا أو اتَّحَدُوا مقصَدًا ولكن حديثا ما حديثُ الرَّواحِل حدثَتْ أمورٌ مناقِضَةٌ للمتوقَّع انزوى هو عن الدنيا وأعرض بقلبه وقالَبه فخطبته وصَمَّمَتْ علي مراودته فنافرها بالطبع ونافَر رجالها فوَغَلَ بينهم سوءُ التنافُرِ فتسلطوا عليه خوفًا علي صَيْدِهم أن يقتنصه فنابَذَهم هو علي حَدٍّ سواء غَيْرَةً علي دينه أن يُداهِنَ فيه فأذكَت الحالُ حرْبًا لم تنطفئ جِذْوَتُها بالكلية إلا بانتقاله لداره الأخرى ومن تحقيق بعض دُهُاةِ الحكماء لما هو بسبيله حكموا أنه ينبغي أن يسامَح في ذلك لأنه مدفوعٌ بدافِعٍ دينِيٍّ عن إيمان عميق لا سبيل إلي زعزعته وحَبَّبَه إليهم مع كمال زهده فيهم معرفتُهم معرفة تامة أن أسْرَه للقلوب وأخذَه بأزمَّة الجموع ما هو في نفسه إلا مأمون الغائلة في طلب الرياسة الدنيَوِيَّة وتوجيه الجموع لغير

الجهاد النفسي وقَمْعِ الهَوَى طَيِّبَ الخاطر عظيمَ الاعتماد صادقَ الوُثوق بأن الإخلاص لله وحده في العبادة قولا وعملا هو الدافع لما يخاف والجالب لما يَرجَى مع تَرْكِ الدنيا بكُلِّيتِها لأبنائها في السَّرَّاء والضرَّاء وهل من بقِيَ في نفسه حَظٌّ يُحْسِنُ هذا كُلا.
أما موقفه في سُوق الدين وحُبُّه في الله فبُرهانُه حُبُّ البياضين الذين هم [165] أكمل صورة في زمنه لمن يُحِبُّ لله لاجتماع الكفاءة الدينية فيهم من العلم ومراعاة الإسلام كافَّتهم أو كثيرٍ منهم وبجانب آخر كثرة ضعفائهم ومساكينهم لا لأمر طَبْعِيٍّ تخصَّصوا به لكن لطوارئ طرأت عليهم في زمن مخالطة {شيخنا} لهم أسبابُها ثَوَرانُ بيوت الإمارة بعضِها علي بعض وانقضاض بعض قبائل الزوايا علي بعض ودخول الإفرنج للاستيلاء علي البلاد فجمعوا بين مُراوغة في استمالة المغلوبين بحمايتهم وعَوْنِهم علي الغالبين وحماية الزوايا منهم وبعضِهم من بعض فأخذت اللصوصُ الأشرارُ هذه الحركاتِ مدخلا للعَيْثِ ومنفذًا إلي الفساد واحتجوا بدخول الإفرنج علي إباحة أموال الناس لكونهم مُوالين لهم ولا يُحتاج إلي دَحْضِ هذا الاحتجاج ظهور بُطْلانه فإن المسلمين ما وَالَوْهُم إلاَ ليَحْمُوهم عن ضرر الفُسَّاق والإفرنجُ ما كلَّفوهم إلا بأمور لا تعرُّضَ للعقائد فيها فاجتاح الفُسَّاقُ جميعَ البلاد وعَثَوْا فيها عَيْثًا كثيرا أكثرُه في الأموال فإنهم ما تركوا حيوانا ولا أثاثا قدروا عليه بحيث يَقِيلُ معك إنسانٌ وهو من أغنى الأغنياء ثم يغدو عليك صبيحة الغد وهو من الفقراء المُعدِمين لأن الجيشَ يُغِيرُ علي حيوانه الذي لم يزل يُثمِرُه السلف للخَلَف قرونا فيستاقونه بالمرَّة محتقبين ما أعجبهم من المتاع [166] والأثاث فكانت هذه مصيبة لم تقع لبد من بلاد المسلمين إلا بمثل ما يُحَدِّثُنا به التاريخ عن غارات

{التَّتران} إلا أن هذه دون تلك لاستبقائها النفوسَ واكتفائها بالمال وهل لو تمانعوا أكانوا يتركونهم ما ذلك هو الظن ثم أن الله تعالي قَيَّضَ لأكثر تَشُمْشَ والقبائل الأخرى كَإِدَوَعْلِ وبني الحسن وأولاد إبْيَيْرِ وغيرُ وغير أن دخل {شيخنا رضي الله عنه} أرضَهم في هذه السنة وكانت الأموال من مريديه في {سنغال} تتدفَّقُ إلي محله وهو الصَّادي الغَرْثَان إلي لقاء محاويج المسلمين ليُفرِغَ في أيديهم الأحمال الثقيلة ويُجري بينهم تلك السُّيولَ الجارية من البضائع المتنوّعة التي ما فَتِئَتْ متواصلة القَطار فصار يخالف لهؤلاء ما أتلفته أولئك بكل فَرَح وسُرور لا يَرَى نفسه في ذلك إلا قاسما فكان في إقبالَه عليهم أدل دليل علي حُبِّه في الله إذ لولا ذلك لصَرَفَه في مصالحَ دنيويَّة تكون أنجح لمكتسِب الدنيا مما كان ألف مرة ولكن ما قيمة الدنيا ومصالحها عند من لم يرها إلا جيفة مُنتِنَةً ولا يَرَى أبناءها إلا نُسُورا في قَذَرِها وَالِغَةً فهِمَّتُه رضي الله عنه متعلِّقَةٌ بالله تعالي والدار الآخرة وقد وافقه القدر علي تبليغه نيتَه في التبسُّط في مُراده والاقتدار علي مقتضيه بجمعه القوة [167] المادية والمعنوية له وتقييضَه له مَصاريفها فهو يُبَدِّدُها إذ ابتُلِيَ بها تبديدَ مُسرِفٍ إلا أنه ساق له مَحَالٌّ ومواضعَ جعلتْه لا يُخطِئُ مواقَّعَ الرضى في رميها فكان أبا اليتامى والمساكين ومفْزَعا للمَحَاويجِ فقام البرهان علي حوزه قصب السبق في ميدان الزهد وتخصُّصه بمواهب الكريم الفرد قال من قصيدة:

*

*

كيف لا يكون بِشَارة للجند وهو يُجَدِّدُ لهم الأجرَ في كلِّ نَفَسٍ من ربِّهم الكريم بيان سيِّدِهم رسول الله صلي الله عليه وسلم القائل: {من سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا} وهم قد سَنُّوا حُسن الاتباع لمحمد صلي الله عليه وسلم والنصيحةَ فيه فهذا التفاني الواقع {لشيخنا رضي الله تعالي عنه} في سبيل الله خصوصية سارية فيه من خصائصهم لنصحه لله ولرسوله صلي الله عليه وسلم ولأئمة المسلمين جزاه الله جزاء أوفى ألم تر كيف يُفَسِّرُ القصيدةَ ببعضِها لتكلُّمه فيها عن حاله الراهنة لا عن فِكْرٍ ورَوِيَّةٍ بل عن وُجْدَانٍ صحيح وذوْقٍ سَلِيمٍ قال أثر البيتين:[168]

*

فالحرام معلوم وقايتَه إياه بحفظ الله من كمال ورعه وعَدْلِه بجميع جوارحه أولا وآخرا وفتنة الناس علي قسمين متباينين فِتنةِ الرجلِ في أهله وولدِه وماله وتلك فتنةُ الأحباب، وفتنةِ أهل الجَوْرِ الظالمين من أهل الفساد نَحوُ ما وقعَ له من الوُشاة وأمراء السوء وحُسَّاد العلماء كما كان يقع قبله للصالحين فانمحاء تلك الفتن عنه ظاهرٌ للعيان من دوام شُغلِه بالله تعالي عن الأحباب وقد شهد بذلك الشيخ الأعزُّ {الشيخ سيدِيَّ} من أبيات له فيه بقوله:

*

بعد أن قال في نفسه في بعض مناجاته لمولاه الكريم:

*

فكأنه رأى شِبْهَ شُبْهَةٍ لظِلِّ النَّفس فخرج منها به تبارك وتعالي لرسول الله صلي الله تعالي عليه وسلم فقال:

*

فهو رضي الله تعالي عنه لم يُقِمْ نفسَه فِداءً إلا بعد ما زكَّاها [169] الباري الأكرم فحينئذ رآها أهلا لأن تُحَبَّ فآثره بها كما وقع لعمر بن الخطاب رضي الله تعالي عنه ففي الصحيح {لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحَبَّ إليه من أهله وولده} فحين عرف الصحابي تمَكُّنَ حُبِّ ذلك في نفسه قال بالبديهة أنت أحبُّ إليَّ من أهلي ووَلَدِي فذكر له صلي الله عليه وسلم أن لا يتُمَّ إلا بدخول نفسه في ذلك فقال له ومن نفسي التي بين جنبيَّ {فشيخُنا رضي الله تعالي عنه} وَثِقَ بأهلية نفسه لأن تحب ببيان رسول الله صلي الله تعالي عليه وسلم فلو كانت خسيسة لما أثرت في التفادي فالخسيس لا تكون له قيمة في المعاملة:

*

فظهور انمحاء فتنته يَتَوَضَّحُ لنا في بذله الفانيَ وانسلاخِه منه.

أما أبناء الدنيا ومنهم العلماء صياد الدنيا بالدين فيَسْتُرُ عوراتهم ويُداوِمُ إكرامَه لهم للعلم الذي في صدورهم وإن لم ينتفعوا به فالمُحِبُّ يُكرِمُ الشيءَ ويُدنيه لمقارنته لما يُحب انظر إلي الشاعر حين شرب النبيذ وفرغ إداوته كيف قال حين رأى رجلا يرميها:

*

فإكرامه رضي الله عنه لكل مسلم سواء استقام فيما ظهر أو لم يستكمل الاستقامة ما هو إلا عظمةُ ما ينتسبون إليه عنده وهو الإسلام وتلك شنشنةٌ نبويةٌ قال صلي الله تعالي عليه وسلم للرجل إذا قتل من تلفَّظَ بالشهادة {ما تقول للا إله إلا الله} وقال عليه الصلاة والسلام مُجَاوِبًا لرجل {لَمْ أُومَرْ أن أَنْقِبَ علي قُلُوبِهِمْ} فالمسلمون يُحِبُّونه رضي الله تعالي عنه لإحسانه إليهم إلا من غلَبَ عليه الحسدُ أو الجهل منهم لأن النفس مجبولة علي حبِّ من أحسن إليها.

أما القاسطون فلأنهم أساري الدنيا فهي تتمَرَّغُ لديه صاغرةً فتركها لهم وهم يتجادَبُونَها بينهم كيف لا تشغُلهم المنازعةُ فيها والمدافعةُ عنها عن فتنة سبحان اللطيف لما يشاء وهو العليم الحكيم هكذا كان يقول لنا في نصائحه {إذا أردتم النجاة من فتنة أبناء الدنيا فاتركوها لهم فمن لم يَجِدْ فلا يطلبْ ومن وجَدَ فليَبْذُلْ، وإن أردتم النجاة من الشيطان فلا تُلابِسُوا أمتعَتَه فإن من يستعيذ منه ويُمسِك مَتاعَه لا يُعِيذُه ذلك فإنه إن جاء يقول له إن تُرِدِ البُعْدَ مِني فأخرجْ إليَّ مَتاعي أترُكْكَ قال ومتاعُه

الحرامُ والمكروهُ واللغوُ فمن تركها وخرج منها بالكلية ودخل في الواجب والمندوب وصَرَف المباحات إلي إصلاحها يَسْلَم منه ومن مضرَّتِه فلهذا [171] كان أكثر نصائحه إنما يشرحُها من هذه الأصول جزاه الله عنا خيرا قال:

*

*

فهذا الصبر هو ما يتعَدَّى بعن وهو ترك الإقدام إلي ما كُرِهَت مُلابَستُه ولا ينفع بالتمام ولا يتم إلا بأن كان التركُ للشيء لأجل أخذ شيء وهو يتعدى بعلي ولذلك دفعه بقوله:

*

*

هذا الصبر النافع الذي يُعَدُّ من مقامات أهل اليقين ولا يكون الزاهد زاهدا إلا إذا تحقق في مقام الزهد أن يكون عليه حال الصبر في كل تلوُّن من تلوُّنات الزهد انظر رضي الله تعالي عنه كيف يتكلم علي حاله الراهنة ووُجدانه الرائق يُرَدُّ كلُّ حال من أحوال الزاهد إلي قوله

حيث هو قال {أحمد بن حنبل رضي الله تعالي عنه} للزهد ثلاثة أوجه ترك الحرام وهو زهد العوام والثاني ترك الفضول وهو زهد الخواص والثالث ترك ما يشغُل [172] العبدَ عن الله تعالي وهو زهد العارفين ومن أجله قال:

*

فزهده في الحرام والمكروه ليس بمجرد تركهما بالمنازعة بل بعصمة وهو التوفيقُ لَمَا كَرِهَ ولولا رُشْدُه لما كُرِّهَ قال تعالي {وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمْ الرَّاشِدُونَ} ثم فسر عصمة التوفيق بقوله رضي الله تعالي عنه وأرضاه:

*

وهذه الدرجة العليا من درجات الزهد عند {أحمد بن حنبل} في كلامه السابق قريبا ولذا قال في حال الشكر في مقام الزهد:

*

وحال الشكر حالٌ في عَلاءِ ذَرْوَةِ كلِّ مقام وجميعُ هذا هو الزهدُ فيما سوى الله تعالي لأن الجميع اجتنابٌ وامتثالٌ [173] لإرضاء الرب جل وعلا والغَرَضُ وجهُ الله تعالي الكريم وكل ما ذُكِرَ أسبابٌ إليه:

*

فلذلك قال {الشِّبْلِيُّ} أعلي الزهد الزهدُ فيما سوى الله تعالي ثم اعلم أيضا أن الزهد العاليَ عن {الشبلي} درجاتٌ كما يُفهَم من تفصيل صاحب {القوت} فإنه قال في تفاصيل حالات الزهد ثم تفاوت الزاهدون علي نحو علو المشاهدات فمنهم من زهد إجلالا لله تعالي ومنهم من زهد رجاء موعود الله تعالي ومنهم من زهد مسارعةً منه لأمر الله تعالي ومنهم من زهد حُبًّا لله تعالي وهو أعلاهم فإذا ثبت ذلك فزهد {شيخنا رضي الله تعالي عنه} من أعلى الزهد فإنه ما نَابَذَ الدنيا وتبرَّم منها إلا إشفاقا مما يَشغُل عن الله وإلا لما كان يَتَحَامَى عن أكثر الحلال فضلا عما سواه فإن هداياه الكثيرة وأمواله المرغوبُ فيها لا يعطيها من تصرفاته إلا رَيْثَمَا يُفرِّقُها علي أهاليها من الفقراء والسائلين ثم من أهَّله الشرع لها ثم هو مشمِّرٌ عَجِلٌ ليتفرَّغَ لأخصّ خِدمِ مولاه وما هو إلا المخلص له لذاته لا لسببٍ فإن البذل وإكرام الضيف ومجاملة الجليس في الله كلُّه لله تعالي إذا أخلص العبد في النية [174] ولكن بتعَدٍّ إلي اللذة الذاتية التي تكون في المناجاة القلبية وتقييد الجوارح والقلبِ بلا خُطور غيرٍ فيه فهي أعظم بكثير إنما يحملهم علي هذه الأعمال المتعدية التعبُّدُ بها وهو في نفسه مقام رفيع لتمحُّضه في العبودية لما فيه من المسارعة لأمر الله تعالي إلا أن اللذة العليا فيما بين العبد وربه ما تمَحَّضَ لله لازما في العبد وهو معنى من معاني قوله عليه السلامان {وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي في الصَّلاة}:

{الباب السابع في توكله رضي الله عنه}

قال في {القوت} التوكل من أعلى مقامات اليقين وأشرف أحوال المتقين قال الله تبارك وتعالي {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} فجعل المتوكل حبيبه وألقى عليه محبته وقال عز وجل {وَعَلَى اللهِ فلْيَتَوَكَّلِ المتوَكِّلُون} فرفع المتوكلين إليه وجعل مزيدهم منه وقال جلت قدرتهم {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلي الله فَهُوَ حَسْبُهُ} أي كافيه مما سواه فمن كان الله تعالي كافِيهِ فهو شافيه ومُعافيه ولا يُسأل عما هو فيه إلخ ويُروَى عن بعض الصحابة وعن بعض التابعين التوكل نظام التوحيد وجِماع الأمر ورُوِي في بعض المَنامات عن بعض الصالحين الأموات أي [175] الأعمال وجدتَ هناك أفضل قال التوكل وقصر الأمل فعليك بهما وعن أبي الدَّرْدَاءَ ذروة الإيمان والإخلاصُ والتوكل والاستسلام للرب عز وجل وعن {سهل بن عبد الله رضي الله عنه} العلم كله باب من التعبد والتعبُّدُ كله بابٌ من الورَع والورع كله باب من الزهد والزهد كله باب التوكل وليس للتوكل حَدٌّ ولا غاية ينتهي إليها.

وعنه التقوى والزهد كفتا الميزان والتوكُّلُ لسانُه وعلي هذا فالتوكُّل من أعلى درجات المقرَّبين.

قال {الغَزَالِيُّ} هو في نفسه غامضٌ من حيث العلم ثم هو شاقٌّ من حيث العمل ووجه غموضه من حيث العلم أن ملاحظة الأسباب والاعتمادَ عليها شِرْكٌ في التوحيد والتثاقل عنها بالكلية طَعْنٌ في السنة وقدحٌ في الشرع والاعتمادُ علي الأسباب من غير أن ترى أسبابا تغييرٌ في وجه العقل وانغماسٌ في غَمْرَة الجهل وتحقيق معنى التوكل علي وجه يتوافق فيه مقتضَى التوحيد والنقل والشرع في غاية الغمُوض والعُسْر ولا يقدر علي كشف هذا مع شدة الخفاء إلا سَماسِرَةُ العلماء الذين اكتحلوا

بفضل الله تعالي بأنوار الحقائق فأبصروا وتحققوا ثم بالإعراب عما شاهدوه من حيثُ استُنطِقُوا إلخ. ولقد صدق فإن الإفصاحَ عن حقيقته من غير إخلال ببعض من جملته والإعراب عن أصله من غير خَرْمٍ لمادَّتِه [176] صعبٌ عزيز كغيره من الإسقاط والاعتدال في الحقائق والأحوال وإنا إن شاء الله نأتي هنا بتلخيص زُبْدَةِ ما قالوا فيه كمقدِّمة لما عرَّضْنا له من ترجمة القليل مما أدركنا من شواهد حال {العبد الخديم} شيخنا وسندِنا رضي الله عنه وأرضاه عنا فنأخذ حَدَّ اللَّفْظِ من كلام {الغَزَالِيّ} فإنه أكثر تفنُّنًا في تحقيق التفسير وتحقيق الأحوال عن {القوت} فإنه أكثر تعَمُّقًا في تحقيق معاني الحقائق وعن بعض أفراد الصوفية عنهما وغيرهما لأنهم أكثر تقييدا بما تُنبِئُ به الأحوالُ القائمةُ في نفوسهم المُعرِبَةِ عن مقاماتهم باختصار وإيجازٍ إن شاء الله لأنها غيرَ المقصود بالذات من الكتاب وإن كان أيضا المقصودُ قد يترتَّب علي فهمها ولو إجمالا لأن معرفة أصول الشيء التي عليها ينبني قد لا ترتاح نفسُ المُطالِع إلا بها قال في {الإحياء} التوكُّل مشتقٌّ من الوَكالة يُقال وَكَلَ أمْرَهُ إلي فلان أي فَوَّضَه إليه واعتمد عليه فيه ويُسَمَّى الموكُولُ إليه ويُسَمَّى المفوَّضُ إليه مُتَّكِلا عليه ومُتَوَكِّلا عليه مهما اطْمَأَنَّتْ نفسُه إليه ووَثِقَ به ولم يتَّهِمْه فيه بتقصير ولم يعتقد فيه عجْزا أو قصورا فالتوكُّل عبارة عن اعتماد القلب علي الوكيل وحْدَه ثم ضرب مثالا بوكيل الخصم في الحكومة طويلا ثم قال فإن ثبت في نفسك بكشفٍ أو باعتقاد جازم أنه لا فاعل إلا الله [177] واعتقدتَ مع ذلك تمام العِلم والقدرةَ علي كفاية العباد ثم تمامَ العطفِ والعنايةِ والرحمة بجملة العباد والأحاد وأنه ليس وراء منتهى عِنايتِه بك ورحمته لك عِنايةٌ ورحمةٌ اتكل لا محالة عليه وحده ولم يلتفت إلي غيره

بوجه ولا إلي نفسه وحوله وقوته فإنه لا حولٌ ولا قوَّةٌ إلا بالله قال {أبو طالب} فالتوكل فرضٌ وفضلٌ ففرضُه مَنُوطٌ بالإيمان وهو تسليم الأقدار كلها للقادر واعتقادُ أن جميعَها قضاؤُه وقَدَرُه ألم تر إلي ربك كيف أقسم بنفسه في نفي الإيمان عن من لم يُحَكِّم الرسولَ فيما اختلف عليه من حاله فقال تعالي {فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً (65)} فكيف بالحاكم الأول والقاضي الأجل فأما فضل التوكل فإنه يكون عن مشاهدة الوكيل فإنه في مقام المعرفة ينظر بعين اليقين كما قال العبد الصالح {فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ (55) } فظهرت منه قوةٌ عظيمة بقوَّةٍ وأخبر عن عزيز بعِزٍّ فكأنه قيل له ولم ذلك وأنت بشرٌ مثلنا ضعيفٌ فقال {إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ} فكأنه سئل عن تفسير توكله كيف سببُه فأخبر بمشاهدة يد الوكيل آخذة بنواصي دوابّ [178] الأرض فقال {مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا} ثم أخبر عن عدله في ذلك وقيام حكمته وأنه وإن كان آخذا بنواصي العباد في الخير والشر والنفع والضر فإن ذلك مستقيم في عدله فقال {إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56)} وقال تعالي في فرض التوكل {فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ (23)} وقال في مثله {إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (84)} وقال تعالي في فضله {وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُتَوَكِّلُونَ (12)}وقال تعالي {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (159)}.

قلت فالتوكل لا يتحقق إلا بالزهد والخوفِ والرجاءِ والعملِ بالشكرِ وذلك لأن الزاهد لم يزهد في الفاني إلا لمزيد رغبته في الباقي فإن من ترك الأشياء لا لشيء فهو غافل ولكن الزاهدُ الممدوح من آثر الآخرة علي

الدنيا ولا يكون إلا لمن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى المضِلِّ ولا يعمل للآخرة إلا من صدق رجاؤه وحَسُنَ ظنُّه بره ووثِقَ بنَصْره فيورثه حال التوكل فيعملَ بحُسْنِ الظنِّ ويَفِرَّ إلي الله ويعْتَصِمَ به مما يخاف فيُثِيبُه الله فيَسْلُبُه الطمعَ في الخلق بقدر ما يُطعِمُه في الحقِّ إلي أن يَسْكُنَ قلبُه إلي الله فتسقطُ الأسبابُ من عينه بمسبِّب الأسباب فيطمئنَّ بذكر الله عن الاستشراف إلي ذكر غيره فينقطعَ إليه رهبة ورغبة فيصدُق توكلُه فيُطالَبَ بالرِّضَي عن الوكيل بكل [179] ما أجرى من قضائه وقَدَره فيُكرَمَ بفَتْحِ عين يَقِينه فيَرَى رأفَتَه بعباده وكثرةَ لُطفِه وسابغَ نِعَمِه وأنه الفعَّالَ لما يريد لا يُسأل عمَّا يَفعل وأن الكامل لا يَصدُر منه إلا الكاملُ فيَرْضَي به ربًّا ويُفَوِّضَ إليه الاختيار والتدبيرَ عبوديَّةً فيقومَ بالأسباب تعبُّدًا لا خَوْفًا من شيء ولا رغبة في شيءٍ غيرَه فيستحِقَّ المحبة {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (159)} وبه تقف علي كُنهِ توكُّلِ {شيخِنا رضي الله عنه} ورفضِه الأسبابَ في الحقيقة وقيامِه بها للشريعة تراه يبتهل إلي الله تعالي في الطلب من أول أمره ويَرغَبُ عن الخلق ويَزهَدُ فيما في أيديهم وإن تضَرَّرَ بالفقر أو غَصَّ بالفاقة كان رضي الله عنه من عُنفُوَانِ شبابه مُتَأَلِّهًا رَبَّانِيًّا وَحِيدَ زمَنِه وفريدَ عصْرِه في الزهد في الدنيا وأهلها والانقطاعِ إلي الله وأهله لم ترْنُ له عينٌ إلا إلي الله ورسوله صلي الله عليه وسلم وآية ظُهُورِ ذلك منه أولا وآخرا أنه نشأ في زَمَن المعرفةُ فيه في حَوْصَلَةِ عَنقَاءَ مُغْرِبٍ والتصوُّفُ فيه إلي اندراس الرُّسُوم أقربُ فَجَبَلَهُ اللهُ بمعرفته ورفعَ عينَه بمُشاهَدَتِه وكَشَفَ له عن عَوْراتِ الدنيا فاستقذرها وأراه ضُعْفَ أربابها عن تقويمها ضُعْفَ الذُّبابِ في طَنِينِ أجنِحَتِه فقفَلَ عنهم وحَدَّ في إرادة الله ورسوله صلي الله عليه وسلم والدار الآخرة فتجدُه وهو

صبي في [180] حُجْرِ {الشيخ الوالد} يُوثِرُه لوجه الله تعالي بجديد ثيابه ويَعتزِل الجماعات في أسماله البالية وإذا اضطرَّه التعلّم إلي غِشْيان مجلس {الشيخ الوالد} يأتيه مُزْوَرًّا عن مَطَارِحِ الأنظار وإذا أتقَنَ درسَه يتَأنَّى ريثما يبدو له هل {الشيخ الوالد} يحتاج إليه في الحال وإن لم يحتجْ إليه يقوم بكل أدب ويرجعُ لخِلْوتِه بدروسه وكُتُبِه وآلةِ وُضُوئِه يتَحَيَّنُ الأوقاتَ في الجماعة علي أنه في تلك الأسمال يسخَرُ من الدنيا وذَوِي فَخْفَخَتِها.
حكى عليَّ عَمِّي الكريمُ {الشيخُ إبراهيمُ} أخوه الذي تربَّى تحتَ جَناحِه ولم يُخالفْه قطُّ في أمر ولم يُفارقْه يوما مدَّةَ مُكثِه في الدنيا أنه يتذكَّر يوما نزل {الشيخ الوالدُ} ضيفًا عند {الشيخِ دَمْبَ فَالْ} وكان من شُيوخ {مبَرْ} وهي قريةٌ من قُرَى {كَجُورْ} من أشرف القبائل تطاولت فيهم الرياسة الدينية والدنيويةُ أدامها الله أنهم نزلوا عند ذلك {الشيخ} وكان الناسُ يغشَوْنَهم كثيرا لما {للشيخ الوالد} من الشُّهرةِ الفائقة في العلوم والاستقامة قال فكان {شيخنا} يَقيلُ عند شجرة وراء القرية وهو إذ ذاك في أوان التعلم وإذا صَلَّى الظهر يأتي بكتابه للقراءة وإذا دخل القريةَ يمُرُّ بالجماعات متقنِّعا علي عادته وهو مُقَلِّلٌ من الدنيا إذ ذاك لما علِمَ أن للدنيا قساوَةً تُخاشِنُ بها مبغِضيها لِتَكْسُرَهم وإذا غَلَبُوها تَبِعتْهم صاغِرَةً [181] قال فلما كان ذات يوم دخل {شيخُنا} متأبطا كتابَه ومر بالملإ جانِبًا ولم يرفع ولم يرفع ليهم بصره خوفًا من النظْرَةِ ولو واحدةً علي محظور فنظر إليه أحد الجماعة وتهَمْهَمَ وجعلوا يتضاحكون وقال بعضهم لأخ {لشيخنا} كان بجانبه له هيئةٌ حسنةٌ وعِلمٌ ودِيانةٌ أهذا المارُّ هو أخوكم السفيه الذي بلغني من أمره كذا وكذا وكَذَا؟ فقال له الرجل علي استحياءٍ هو كما ترى فدخل {شيخُنا} وقرأ ورجع

إلي محلِّه في الخلاء مع غلامه الفتى {إبراهيمَ} فبلغه أنهم نالوا منه وقالوا فيه فكتب هذه الأبيات مُعْرِبًا عن خاطِرِهِ لنفسه:

{

}

ومنها استهانتُه بالملوك وهيئاتهم إذا أرادوا به أمرا أو يخطُر ببالهم حَمْلُه علي غير المنهج الأقوم كان لا يركَنُ إليهم ولا يُداهِن في مخالطتهم وكان عليهم عزيزا بقدر ذُلِّه للمؤمنين في ذات الله تبارك وتعالي وكان أمراءُ {كَجُورْ} {وبَوَلْ} {وجُلُفْ} {وسِينْ} {وسَالُمْ} قبل تغلُّب الإفرنج يتحدَّثون بزهده في الأمراء وبُغضِهِ لأموالهم واعتيافه إياهم مما سبق طَرَفٌ منه مما كان بينه وبين {لَتْجُورْ} {وصَنبَ لَوْبِ} أمَرَاء {كَجُورْ} وكذلك {عَالِ بُورِ انجَايْ} أمير {جُلُفْ} وكان هذا الأخيرُ بعد ما اختبره يُحِبُّه حُبًّا مُفْرِطًا وقد سبق طلبُه أن يكون له إمامًا يُجاهِدُ النصارى وأَبَايَتُهُ ذلك عليه ومَنْعُه من قتالهم.

حَكى عليَّ {شيخُنا} أنه مَرَّ به في [182] {جُلُفْ} أيام رياضته مع فِرقَةٍ من ذوي تربيته في بعض سِياحاته وكان صَرَفَ نصيبا في السياحة في بدايته أنه تلقاه في أشرافٍ من قومه ورآه مُترَجِّلا لم يركبْ فأهدَى له جَوادًا ورَدَّه {شيخُنا} إليه وقال لعله ظنَّ أنه غير حَلالٍ لما بلغه من الوَرَع عنه وتَرْكِه لمال الأمراء فأرسل إليه رَمَكَةً حُرَّةً وقال له هذه من مال أمِّي اشترتها من صُنعِ يَدِها قال {شيخُنا} فأخذتُها حَياءً من رسوله {محمَّدُ مخرجَ جوب الجلْمَغِيُّ}لأنه كان أخذ عن {شيخنا} وصار له مُريدا إلا أنه في ذلك الأوان ما زال مُخالِطًا للأمراء لأنه من بيوت الإمارة قال {شيخنا} فلما صَرَفتُه أعطيتُ الرَّمَكَةَ لأول من لقيتُ وكان قصدي تربيةَ

نفسي علي هذه المشقَّة لأني كنت أتعَوَّدُ المشيَ في السفَرِ الطويل وجاهدت نفسي وحملتُها علي كل مشقَّةٍ حتى صرتُ لا أحُسُّ بتعَبِه إلا المشْيَ علي الرجْل فقصدتُ السياحة لأجل هذا مع أن مريديه في ذلك الوقت قد اتخذوا رباط الخيل في طول البلاد وعَرْضِها إلا الذين منهم لازموه للتربية كلُّ هذا رغبةٌ فيما عند الله وزهدٌ في غيره وثِقةٌ به وتوكُّلٌ عليه ومثل ذلك أمراءُ {سَالُمْ}.

حكَى عليَّ رجلٌ ليس من مريديه أنه يتذكر يوما كان مع {بُورْ سَالُمْ} {كدل} وهو يقول ما بقي شيء أهم [183] عليَّ من لقاء هذا {الشيخ} ولا حيلة لي به فإنه لا مطمع في خِلطَته الأمراء وكان كثيرا ما يأتي {لامبَكِّ بَوُلْ} وينزل عند خال {شيخنا} العالم العلامة {الشيخ محمد بُصُ} ليكون وُصلةً بينه وبين ابن أخته {شيخِنا} ويؤكِّد عليه {شيخُنا} أن يجتهد في أن لا يقابلَه ذلك الأمير وأن يُنهِيَ إليه أغراضَه ولِيَعلَمَ أنه بصِلَتِه به فكأنما واصَلَه تطييبا لخاطره لأن الأمير إذ ذاك يُحِبُّ الإسلام يحب الإسلام وأسلم بعدُ وكذلك أمير {بَوُلْ} {تِينْ تَنُورْ} ذلك الأمير القاسي الجَسُورُ جرت بينهما أمورٌ آلت إلي انقلابه وانطِراحِه بين يديه وصار يتودد له ويُهدِي إليه ما يظُنُّ أنه لا يردُّه قيل إنه طلب من ابن عمه أن يسعى بينه وبين {شيخِنا} من تلك الهَنَاتِ وطلب منه أن يذكُرَ له العَدَدَ الذي يُرضِيه عنه من الذهب والفضَّة والعبيد فقال له الرجل وهو إذ ذاك مريد قد عرف بعض المعرفة أن {شيخنا} لا يقبل لهم شيئا إلا بالاحتيال وذلك أنه يُكرِمُ القرآن إكراما زائدا ويُحِبُّه حبا مفرطا لا يشبع منه إذا أردتَ شيئا لا يرُدُّه فاشتر مصحفا وأرسِل به إليه قال فاشترى مصحفًا من المُدَرِّس الكبير والعَلَم الشهير {محمد يَاسِينْ سِلَّهْ}

المنفردِ في أيامه بمعرفة القرآن في {امْبَاكُلْ} قال الرجل فلما أتى الرسولُ بالمصحف {لشيخنا} وقال له إن الأمير [184] يتوب إلي الله مما ارتكب في جانبك ويتوب إليك فلا يتغيَّرْ قلبُك عليه ولا تسخَطْ فلن يُعاوِدَ ذلك ما دام عاقلا قلبُه فقال له إن القرآن لا أرُدَّه وقد أتاني ولكن أؤكِّدُ عليه توكيدا أن لا يُهدِيَ لي بشيء أما ما يريد فقد سمعتُه وهكذا يُخاطِبُ الأمراء الجُهَّال الذين لا يخافون علي حِفْظِ شرَفِ مُلْكِهم لومةَ لائمٍ ولكن من خاف الله أخافَ منه كلَّ شيء كما قال {أبو طالب المكي} فإن العبد إذا تمَّ خوفُه من الله أزال الله خوفَ المخلوقين عن قلبه وحوَّل ذلك في قلوب المخلوقات فصارت هي تخافه إن لم يخفْها هو كما إذا كَمُلَتْ مشاهدةُ العبد وقام بشهادته وعيَّنَتْ تلك المَشاهد وُجودَ الكوْنِ مع الله عز وجَلَّ فلم يرها وقام له القَيُّومُ بنصيبه من المُلك لَمَّا تفَرَّغَ قلبُه لمعاينتِه الملِك فهو رضي الله تعالي عنه مثال المتوكِّل المحبوب كما قال في {القوت} نظرَ العبْدُ الذليلُ إلي سيِّدِه العزيز فقوِيَ بنظره إليه وعَزَّ بقوته به واستغنى بقُرْبِه منه، انظر كيف يستخِفُّ رضي الله عنه بأُبَّهَاتِ الملوك ويستصغِرُ جميع أزياء السلاطين.

حكى عليَّ مريدٌ كان معه أول الأمر أنه جلس عنده وجرى ذكرُ حوادثِ ذلك الوقت أيام أنزل أميرُ {اندَرْ} جنودَه الكثيرةَ لطلب أمير {كَجُورْ} وتعاكُسِ بيوت الإمارات فيما بينها {لَتْجُورْ} {وصَنْبَ لَوْبِ} {وصَنْبَ [185] يَايَ} وخوَلِهم وصارت البلاد كلُّها في اختلاط وأصنافُ الرعاية في حَيْصَ بَيْصَ قال {شيخُنا} والقومُ يُفيضون في تلك الدهشة إن جميع المتنازعين تنازعوا علي شيء وأهون شيء علي رب الأرباب أن يَجمَعَهم بقُدرَتِه وحكمته في شِقّ قِشْرِ لَوْزَةٍ ولا يُوَسِّعُ القشرةَ

ولا يقلل من كثرتهم وحركتهم فبُهِتَ القومُ فكيف لا يعتزُّ عبدٌ علَّقَ نظره بكمال رب العزة وكيف يهابهم ومِنْ بابٍ أحرى أحدا منهم ولم يُشاهدْ أمورهم كلَّها إلا هباءً منثورا وكيف لا يستغني بقربه وقد تشَرَّفَ بحضوره مُعَايِنًا لا يغيب طَرْفَةً كما قال {لِسُوسِيٍّ} هو رئيس شرطة حاكم {اندَرْ} لما ركبوا من {كُكٍّ} يريدون {اللُّوكَهْ} يسوقه الجيشُ مع غِلْمان يحملون أمتعته إلي {اندَرْ} من ذلك البلاء المبين إذ تسلَّطَتْ عليه حكومةُ {اندَرْ} {واللُّوكَهْ} بخَيْلِها ورَجْلِها وأضمروا له كلَّ إهانة وشِدَّةِ عذاب ليقمَعوا سَوْرَتَه أو ينحذف من الوجود شخصُه فيُريحُوا منه الحسَّادَ والمنافقين عام جيسش 1313 قال له {السُّوسِيُّ} {وشيخُنا} يركُضُ به جَوَادُه أمامهم في ضَوْءِ القمَرِ وهو يَهِيم بمَعْشُوقِه سيدِ الوجود صلي الله عليه وسلم ويعتز بعزة ربه مالك الملك ينشُدُ بحَمَاسَةٍ عُظمَى بيتَ صاحبِ البُرْدَةِ:

*

ويجول به قلبه في ملكوت أسرار القرآن ويغشاه من جلال الهيبة ما يغشاه ثم يتلذذ تَلَذُّذَ الشارب الثَّمِل سُكْرًا من خمر المحبَّة وغَيْبَةً في بحر نور المشاهدة قال له الشرطِيُّ وهو ناصح له كغيره من الشُّرَطِ مُشفِقون عليه لما عرِفوا منه ولا يُمكِنُ أن يُعَرِّفوا به رؤساءَهم أيها الشيخ وقد ركض حتى حاذاه لا تترك عَوْذَةً أو ذِكْرًا أو سِرًّا إلا واستَعمَلتَه واعلم أن الحكومة قد عزِمَتْ علي الفَتْكِ بك قال الرجل وهو الحاكي بعدُ فلم يلتفت {الشيخُ} ولم يزد علي أن قال مستحيل علي الله غيرُ الحُضور فأمسكتُ جَوَادِي مع العسْكَرِ ساعة ثم تفكَّرت

فيما يريدون به وما علمت من صَلاحِهِ وسَلامَةِ صَدرِه ولَمْ أملِكْ نَفسِي أن حرَّكْتُ الدابَّةَ حتى حاذيتُه فكَرَّرْتُ الكلمةَ فلم يلتفت وكرر ما قال أولا ففعلتُه ثالثا فكَانَ الجَوَابُ كالأول فأمسكتُ عنه حتى أتينا {اللُّوكَهْ} وأرسِلنا معه إلي السفينة لنركَبَ إلي {اندَرْ} فلما استقرَّ بنا المجلسُ في السفينة أتيتُه فقلت له هذا الذي جاوبْتَني به ما هو؟ وإني ما حملني علي ما صَنَعتُ إلا الإشفاقُ عليك قال فقال لي معناه أن الله حاضرٌ لا يغيب وإذا كان هو الفاعل المختار ولا يجري شيءٌ إلا بقَدَرِه فما بالُ من هو مربوبٌ له أن يفزَع لشيءٍ أو يَهَابَ عن شيء فحقُّ العبد في هذا الموقف التسليم [187] والرِّضَي بما أجراه من قدَرِه فأنا راض بما أجراه من القَدَرِ ومُتَوَكِّلٌ عليه في السراء والضراءً وليست هذه الأعداءُ بقادرين علي شيء وإني لا أرغب في شيء إلا في موافقته تعالي إذا قضي أمرا لابُدَّ منه أفَتَرَانِي أعارضه لم أطمع أو أخافَ أحدًا غيرَه وما ذاك إلا مخلوقٌ عاجز كلّا. بخ بخ أسوة حسنة في مخدومه صلي الله عليه وسلم إذ تقول له قريشٌ إن ترد كذا وكذا فعَلْناه لك فقال صلي الله عليه وسلم {لَوْ جُعِلَتِ الشَّمْسُ في يَمِينِي وَالْقَمَرُ فِي يَسَارِي} إلخ ومن عجيب لطف الله {بشيخنا رضي الله تعالي عنه أن {جَنْدَرْمَةَ} الذين كانوا معه وهو أقسى خَلْقِ الله وأنفَذِهم فيما أمر به حاكمُهُم كانوا مع {شيخنا} يُعَدِّدُون عليه أنفاسه من شِدَّةِ المراقبة ظاهرا وكتب الله أنهم صاروا أشد الناس شَفَقَةً عليه وإيمانا بصلاحه وأكثر تصديقا لولايته واعتقادًا في برَكَتِهِ.
حكى عليَّ شاهِدُ عَيْن أنهم كانوا إذا توضَّأ {شيخُنا} في موضع يتسابقون إلي ثَراه يَتَمَسَّحون به انظر هذا مع

أنهم عُدَّةُ العَدُوِّ وحُرَّاسُه المؤتَمَنُون صدق والله إذ يقول رضي الله تعالي عنه:

*

*

[188]

فتوكُّله رضي الله عنه توكُّل محبوب يطالعه الوكيل بمكنون أسراره فيُنسيه غيرَه ويُكاشِفُه بحقائق أنواره فتنجَلِي الأشياءُ كما هي فلا حُجُبُ المَكارِهِ تُوَارِي عنه أسرار الأقدار ولا ظُلَمُ الشهوات تَحُوم حَواليْ بصيرَته فيتوقَّفُ عن الرضي بالقضاء بل عبد متمحِّضُ العبودية عرف ربه ربًّا كاملَ الرُّبُوبية فأغنته مشاهدتُه عن مُكابَدَةِ صرفِ الطَّمَعِ في الخلق وكَفَّتْه مُعاينتُه دون توجيه الذَّمَّ إليهم سكَنَ قلبُه مع ربه وعكف عليه شَغَلَ فِكرَه بقُدْرَةِ المُصّرِّف إنما مُوالاتُه في الله ومعاداته فيه فإن مُدِحَ فبمَدْحِه تعالي وإن ذُمَّ فبذمِّه ذَمٌّ لا يحمله جَرَيَانُ الأسباب علي أيدي الخلق علي مداهنتهم أو مداراتهم لأنه مُشاهِدٌ يَدَ القُدرة في التصرُّفَاتِ وحُكْمَهُ النافِذَ في جميعها فهيهات أن يبرُقَ العدوُّ ويرعدَ لينال نصيبا من خوفه أو رجائه وهيهات أن يطمع طامعٌ في استمالته رغبةً أو رهبةً ليَميلَ إلي باطل أو يصمُتَ عن حقّ لزِمَ ومن شكَّ في هذا فليتتبَّعْ أثره من عند أولي القوَّةِ والبأس الشديد من الأمراء والسلاطين الذين كانوا يجهَلون حقيقته وذَهَبوا به كلَّ مَذْهَبٍ وساموه كلَّ فِتنةٍ

وبلاءٍ هل حصلوا قطُّ علي نصيب من لِينِه أو شَذْرَةٍ من الغُفُول عن دينه حاشاه ألفَ مرَّة بل يستوفي معرفتَه علي الاستقامة [189] والصراحة في الحق والذِّكر والشكر والخشية والموعظة والوقوف مع الحق الذي يسمعه التلميذ من فيه وهي التي يأخذها الأهل والولد في قَعْر الدار وهي التي يُصيبُها الأمير منه بين جنده والسلطان بين أقياله فظهرت فيه محبة الوكيل كلَّ الظهور فالله إذا أحب عبدَه نَصَرَه فلو لم يكن محبوبا لما كان منصورا في جميع أدوار حياته في إقبال الدنيا إليه في البداية حتى غلبها بالزهد فيها والتخَشُّن في المأكل والملبس وبذلِها لأولِ قادِمٍ وابتذالِها بين الناس وفي النهاية يقودها بخِطامِها علي مقتضى أوامر الكتاب وهدي سنة {سيِّدِنا محمد صلي الله عليه وسلم} مِصداقُ قوله عليه الصلاة والسلام {لعمر بن العاص رضي الله عنه} {نعم المال الصالح للرجل الصالح} وما ورد في الخبر {الدنيا مَطِيَّةُ الآخرة لمن أحسن رُكوبها} وأعجب من كل ذلك تلك المعركة الدامية الفاصلةُ وانجلاءُ الغُبار عن غلَبَتِه الختاميَّةِ يوم ابتسم الحُسَّادُ والوُشاةُ واستخفَّهم الشيطان فأطاعوه يوم قَلَبَتْ له الحكومةُ بسببهم ظَهْرَ المِجَنِّ وقد حصَلَ عنده من العَدَدِ والعُدَّةِ ما لو اعتدَّ به لكافَحَ من أرادَه بسُوءٍ مُكافَحَةً ترُدُّه علي أعقابه وتُوَجِّل نَيْلَ المُبْتَغَي منه إلي أجل مجهول ولكنه رضي الله تعالي عنه أتته الدنيا عَرَضًا وهي غيرُ مقصودة فلن تقطعه عن سيرِه ولن تشغَلَه عن [190] وجهته وقد استأثر بمجامع قلبه عظمةُ مولاه وحبُّ نبيِّه صلي الله عليه وسلم فغادرها كلَّ ذلك علي ما هي عليه وطرح نفسه بين أيديهم علي يد القادر المُريد وكيلِه جل وعلا فبلاه بأنواع البلاء فألفاه كما

يرضى لعباده شاكرا قال فيه ابن المعلى شاعره الفحل الخِنذِيذ:

*

*

*

*

*

*

فهل سبق بعد لرسول صلي الله عليه وسلم وأصحابه من اتصف بهذه وأجريت عليه جميع أنواع المصائب والبلايا فتنةً وفتنة الإقبال والفتح ثم بلاء الذُّلّ والغربة بأثرها مع توفر أسباب الدفاع فغيَّبَتْه مَشَاهِدُهُ وحبُّه

ورضاه عن كل تصرُّف ولم يرض إلا بتصرُّف الوكيل واختياره إن مثل هذا لمفقودٌ من الزمن بفقدان الأنبياء عليهم السلام والصحابةِ رضي الله عنهم [191] فلا ينتظر إلا أن يكون جزاؤه فوق جزاء كل شاكرٍ وبِشرارتُه فوق بشارة كل صابر {إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (120)} وأشد من هذا بلاؤُه بالخير فتنةً بالإقبال العظيم والفتح المبين والظهور علي الأعداء واستسلامُهم له وإقرارُهم بالخطأ وتذلُّلُهم له بعد تلك السنين إلي آخر العمر وما تهيأ له من لذة الأمر والنهي بحيث لو أشار إلي مريديه إلي بحر لخاضوه أو إلي نار لاقتحموها وهم ألوفُ مؤلَّفةٌ وما زالوا من أول ابتدائه إلي آخره يزدادون فيه وما ينقصون وشاركهم في الطواعية جميع القِطر كأنه أمر ضروري والشذوذ عنه وَقَاحَةٌ فاحشة وأمر منكَر سواءٌ فيه البر والفاجر إنه والله لعجبٌ عُجاب فلم يزده كلُّ ذلك إلا توكلا علي مولاه ماضيا في أمره علي صراطه المستقيم وتقسيمه بالعدل علي الصراط السوي قائما فيها بأحكام الشريعة ملتزما لمُطالبات العلم مع تسليمه الحكم الأول لله تعالي وقيامه بشهادة تجريد التوحيد للأول والآخر والظاهر والباطن قال في {القوت} فللعارف المتوكل من الصنع الباطن شهادةٌ هو قائم بها وله في الحكمة الظاهرة علم شرع وتسليم رَسْمٍ ورَسْمٌ هو عامل به وهذا هو شهادة التوحيد في عبادةً التفضيل وهو مقام العلماء الربانيين وكلِّ مؤمن متوكل علي الله وتوكل كل عبد علي قدر يقينه.

قلت: وبلاء كل محبوب علي قدر [192] حظه عند ربه في سابق قسمته بنص حديث الترمذي {أعظم الناس بلاء الأنبياء} إلخ فما بلغنا أن أحدا مرَّ بمثل ما مر به من البلاء فأحسن الصبر الجميل كهو ولا من أتته الدنيا راغمةً واستقبلته العِنايةُ بمفاتيح الكنوز وبسَّر له التوفيقُ

اللدني أسباب الولاية الظاهرة والباطنة فجازها كلها إلي الله تعالي واقتحم عقباتها الكَنُودَةِ بلا مبالاة لخطرها إليه سبحانه وسكن عنده ثم يصرفُها بتعيينه تعالي علي حسب أوضاع اختياره بلا حظٍّ جَلِيٍّ أو خَفِيٍّ من الاختيار النفسي وإطلاق النفسي عند ذكره تجَوُّزٌ وإلا ففناؤُه في الله أفقده الحسَّ فضلا عن المُلكِ وبقاؤه به أمَجَّ حقيقته في سِرِّ بديع إتقان صنعه جل وعلا كما قال رضي الله عنه:

*

نعم فإن مزايا الأقطاب والأفراد من الأولياء والصديقين مُحِيطَةٌ بكُلِّ فَضِيلَةٍ ولطالما تُنَبِّؤُنا الأحوالُ والأخبار عن شطحاتهم وتحدُّثهم بالنعم بإذن منه تعالي ولكن ما قامت البراهين منهم مثل ما قامت براهينه وإن كنا نصدِّقهم كلَّهم فإنه ليست صلاحية الشيء بقرائن أحواله كمن قام بالشيء واستوفى فنونُه { إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةٌ يُضَاعِفْهَا} [193] {إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ} قال في {الفتح} في تفسير قوله تعالي {لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُوْلِي الضَّرَرِ} أنه مستثنون من عدم الاستواء إذ لا واسطة بين الاستواء وعدمه وأن المراد استواؤهم في أصل الثواب لا في المضاعفة لأنها تتعلق بالفعل ويمكن أن يلتحق بالجهاد سائر الأعمال الصالحة انتهى. بحذف واختصار لا يُخِلان بالمعنى المقصود وقال {ابن حَجَرْ} في تعلق المضاعفة بالفعل ذكرُه تعالي {أولي الضرر والمجاهدين} وذكره {المستضعَفين} بعدهم فإن أولي الضرر {كابن أم مَكْتُومٍ} {وابن جَحَشٍ} كانوا معه

صلي الله عليه وسلم في دار الهجرة يُوازرونه بما في إمكانهم كما استخلف {ابنَ أمّ مَكْتُومٍ} في بعض غَزَوَاتِه علي المدينة فهم زادوا علي المستضعفين في الفعل فاختلفت العِبارةُ عند ذكرهم في الكتاب العزيز فقال {غير أولي الضرر} في نفي عدم الاستواء وقال {فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ} فالزيادة في الأفعال خُلوص النية ولزيد القوة عليها بالأجر هي أسني خصائص الموفَّقين {كشيخنا رضي الله عنه} ومن هذا الباب قال بعضهم إن {عمر بن عبد العزيز} أزهد من أُوَيْسٍ الْقَرَنِيّ} لأن الأول أتته وزهد فيها والثاني تركته الدنيا ولم يطلبها وما صحَّ في الحديث {ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالأُجُورِ} فقال لهم صلي الله عليه وسلم ما معناه أعطيكم ما تُدركونهم به وهو أن [194] تسبِّحوا الله ثلاثا وثلاثين وتحمدوه ثلاثا وثلاثين وتُكَبِّرُوه ثلاثا وثلاثين أو أربعا وثلاثين فسمعه الأغنياءُ ففعلوه فرجعوا إليه صلي الله عليه وسلم بالشكوى فقال لهم {ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ} ومن هذا الباب ما قاله {الشيخ الكريم ابن الشيخ سِيدِيَّ} في {شيخنا رضي الله تعالي عنهم وأرضاهم عنا من جملة قصيدة يمدحه بها:

*

إلي أن قال في آخرها

*

فهو رضي الله عنه من خصوص العباد المتوكلين الذي لم يُخلق إلا للعبادة ولم يرد منه أن يَرزُقَ نفسَه بكسبه الذي أبيح له فيكونَ كغيره بل لأن يعبد علي الخصوص

فكلٌّ ميسَّرٌ لما خُلِق له اختار الخدمة لربه بالعبادة والشكر تعظيما وإجلالا فأخدم مولاه الدنيا له وسَخَّرَها لمصالحه فأتته صاغرة فهو يصرفها بتعيين ربه حيث اختار وأمر فتوكُّله أعلي درجة في التوكل فإن نظرتَ في آثاره تجده يتقلب في منصب التمكين علي وسَطِ سَنَامِ أسنَي درجةٍ في المقام تلوين في تمكين لا تلَوُّنٌ [195] في سلالم العقبات فقد إجتازها بقوة ربانية واستولى على أمدها أنظره بين وحوش الجزيرة الكاسرة وأنياب الليوث المتكثرة بين (كلوى) (وماينب) في بحر الظلمات حيث الجوهر محمر في كير الحداد يقول حين تختلف هبوبات نسيم أرواح حال الرضي في مقام التوكل وقد رق له بعض التجار وتلطف إليه أن يأتيه في بيته ليسعفه بشيء من ضرورياته وأكثرها إذ ذاك أدوات الكتابة ومواعين العبادات قال رضى الله عنه فارتاحت لوعده نفسي بعض الارتياح فقمت أقصد بيته حين جاء الميعاد فلما دنوت منه حتى ارتفع صوتُه يخاصم ءاخر في مماكسة فرجعت عنه إلى كناسي المنقطع فاهتزت فيَ أريحية اليقين فأنشأت إرتجالا

*

*

*

*

فلا يرتاب من له أدنى إلمام بأذواق القوم أن هذا الكلام ترشح من مزاوده أفانين التعظيم والإجلال عن قلب متأله سقط من عينيه الخلق إلى غاية الضعة من نور الجلال وقد ثمل من غشيان [196] جمال كرم مولاه القدير الفعال فئاية التوكل الإستهانة بالغير ثم الزهد فيه ثم نسيانه فالحرف الأول الذي صدر به ينبئ عن عدم محض لغير المشهود من القلب فلولا أن الإسم الخالق يفيدنا بإمكان خلق من الإسم الكريم تفضلا يعرف به كماله والأثر يدل على المؤثر ووجود المؤثر يفعل يجعل الأثر ممكنا لما خطر له خاطر خلق لفنائه عنهم في هذا الموطن فلذالك قدم حرف النفى لنفى أن يكون هناك أدنى مؤثر يصمد إليه فدفع الوهم واستهزأ بالمتوهم وقال

*

ولما كان سر الإيجاد الذي أودع هيكله الإنسانى مازال النور القدسي يسطع عليه وقد أحاط به وأزاح عنه الظلمات لا يزال يعاين يد القدرة الفريدة في كل شيء وما كذب الفؤاد ما رءا قام بما نيط به من إقامة العبودية لمستحقها وبذل الثناء عليه كما هو أهله فأثبت لربه الأعلى ما ثبت له ووصف نفسه بما جبلت عليه النفوس البشرية بل الوجود كله من الضعف والفقر وما خص به هو من البلاء لسابق المحبة من القربة ليصل إليه نصيبه من قربة بلاء الإسلام وأهله فيستحق الوراثة فقال

*

[197]

فهو في هذا الموطن متمكن في التوكل الأعلى يعاين المصير بوعد ناصره تعالى قال في (القوت) ومن الخصوص من توكل عليه تعظيما وإجلالا كما تقدم من حاله ومنهم من توكل عليه يقينا بوعده ليحقق صدقه كأنه قد أخذ الموعود بيده إذ يقول ومن أوفى بعهده من الله إنه كان وعده مأتيا فإنه رضى الله عنه ذكر الشكاية بحرف المضارع وهو للحال والإستقبال ليناسب حال العبد مع ربه وهو الإفتقار إليه سبحانه في كل زمن وعلى كل حال ولتقرير الحال ليترتب عليه ما عومل به من الإجابة فإن الشكوى إلى الله تعالى لا ينافي التوكل والصبر فهذا نبي الله يعقوب عليه الصلاة والسلام قال إنما أشكوا بثي وحزني إلى الله وقد قال إن الحكم إلا لله عليه توكلت وقال فصبر جميل والرجاء في قوله رضي الله عنه وأرجوا رجوعي من باب أحرى في أن لا ينافي التوكل كما في قصة يعقوب ايضا عسى الله أن يأتيني بهم جميعا وعسى للترجي بل فيه السكون إلى الله وزيادة حسن الظن به وهو مطلوب كما في الصحيح أنا عند ظن عبدي بي وفي بعض الكتب زيادة فليظن ما شاء وفيه لا يموت أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه فلذالك ترى الأنبياء وخصوصا سيد الوجود صلى الله [198] عليه وسلم وإمام المتوكلين أكثر الناس دعآء وأكثرهم إبتهالا إلى مولاه الكريم في زمن الضيق والكرب ما ذاك إلا مزيد عبودة تليق به لربه تعالى ثم قال رضي الله تعالى عنه

*

يقول هذا وهو في ضنك وضيق وفقر مدقع ما ذاك إلا لتنزل وعده تعالى عنده منزلة الحاضر ومكاشفته تعالى إياه به وقد أنجز له في هذه الحال ما هو الهمة بينه وبينه وهو كونه تعالى له بلا سلب أبدا برسول الله صلى الله عليه وسلم مع الكتاب العزيز كما يومئ إليه في ءاخر القصيدة وغير ذالك من الفتح واليسار في الحياة الدنيا فلا يتشوق إذا إليه ولم يكن ليخطر له ببال إن وجد أو لم يوجد فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ثم استأنف رضى الله عنه ظهوره بالإعتزاز بربه على المعاند في الدين من ثمرة توكله وحال الرضى فقال

*

*

قال تعالى ومن يتوكل على الله فهو حسبه فشيخنا رضى الله عنه يذكر ربه بصنيعه ليشكره عليه فالذكر قبل 199] الشكرِ قال تعالي {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي} فهو رضي الله عنه لا يدع ذكر ربه بذكر صُنعه وذكر آلائه فيُثني عليه ويُودِّي شكرَه علي ما يليق به سبحانه وتعالي ويُثني عليه بما هو أهلُه فإنه يتجسَّم في خَيال كل متفكِّرٍ في هذه المعاندة التي لم تقع إلا بسبب انقطاعه لربه وإقبال الخلق إليه طمعا في فضله ورغبة في هديه السَّنِيّ من نور الإتباع وإلقاء المحبة عليه وفي قوَّته في قيامه للذبِّ عن الإسلام وفي عزته

علي جاهليه بلا مبالاة بالنفس والمال حتى انقمعوا كُلُّهم وسَلَّموا أمرَه إلي تلك القدرة الفعَّالة التي لا تدرك كُنْهَهَا العقولُ من لدنه تبارك وتعالي لتأييده ومن خدمة رسوله صلي الله عليه وسلم التي أفردته عن أهله وأقاربه للاختصاص بخدمته ونصرة سنته فحجاب الله تبارك وتعالي له عنهم خارقٌ عجيبٌ يشكره عليه رضي الله عنه وأرضاه عنا بجاه النبي صلي الله عليه وسلم وأصحابه آمين.

{الباب الثامن والتاسع في مقامي الرضي والمحبة}

قال في {القوت} الرضي عن الله سبحانه وتعالي من أعلي مقامات اليقين بالله وقد قال تعالي {هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ (60)} [200] فمَن أحسن الرضا عن الله جازاه الله بالرضا عنه فقابل الرضا بالرضا وهذا غاية الجزاء ونهاية العطاء وهو قوله تعالي رضي الله عنهم ورضوا عنه {وقد رفع الله الرضا علي جنات عدن وهي من أعلي الجنات} كما فضَّل الذكر علي الصلاة فقال تعالي {وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ} كما قال الله تعالي {إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ} والذكر عند الذاكرين المشاهدةُ فمشاهدةُ المذكور في الصلاة أكبر من الصلاة وهو أحد الوجهين في الآية والوجه الثاني ذكرُ الله للعبد أكبر من ذكر العبد له وقال {عبد الله السَّاجِيُّ} مِنْ خلْقِ الله عبادٌ يستحيون من الصبر يتلقَّفون مواقع أقداره بالرضي تلقُّفًا وقال {عمر بن عبد العزيز} أصبحتُ ومالي سُرورٌ إلا في مواقع القضاء فالراضون عن اله عز وجل هم الذاكرون لله بما يحب

ويرضي فالرضوان الأكبر جزاء أهل الذكر الأكبر وهذا أحد المعاني في قوله {من شَغَلَه ذِكري عن مسألتي أعطيتُه أفضلَ ما أُعطِي السائلين} أي الرضا عنه لأن السائلين يسألونه لهم فأعطاهم العفو، والذاكرون ذكروه فأعطاهم الرضا عنه عز وجل بلفظه وبهذا أوقفنا [201] {الشيخ أبو طالب} عن السلف الصالح على أسباب الرضي وآياته وبهذا انعطفت قلوبُنا علي ذِكْرَى الشيخ الذاكر بأقواله الدال علي الله تعالي بها وبأفعاله وأحواله بما يحب الله تعالي ويرضاه وهو ما سَنَّه الرسول المعصوم طريقا إلي الله وما يرضاه الحق لعباده الصالحين وما بقي إلا تطبيق أوصاف الراضين عند العموم علي ما كان عليه {شيخنا} في حركاته وسكناته في مواقع القضاء والقَدَر قال في {القوت} إن عابدا عبد الله دهرا طويلا فرأى في المنام أنه قيل له فلانة الراعيةُ رفيقتك في الجنة فسأل عنها حتى وجدها فاستضافها ثلاثا فيبيت هو قائما وتبيت هي نائمةً ويَظَلُّ صائما وتظَلُّ مفطِرَةً فقال لها أما لكِ عملٌ غيرَ ما رأيتُ قالت ما هو إلا ما رأيتَ فلم يزل يقول تذكّري حتى قالت خُصَيْلَةٌ واحدة هي في إن كنت في شِدَّةٍ لم أتمَنَّ أني في رخاء وإن كنت في مرض لم أتمنَّ أني في صحة وإن كنت في شمس لم أتمنَّ أني في ظِلٍّ قال فوضع العابد يده علي رأسه وقال أهذه خصيلة هي والله خَصْلَةٌ عظيمة تعجز عنها العُبَّادُ ثم قال قال {أبو الدَّرْدَاء} ذَرْوَةُ الصبر للحكم الرضي بالقدر إلي أن ذكر الحديث {إذا أحَبَّ اللهُ عَبْدًا ابتلاه فإذا صَبَرَ اجتباه فإذا رضِيَ اصطفاه} فالرضي عن الله عز وجل والرحمةُ للخلق وسلامةُ [202] القلب والنصيحةُ للمسلمين وسخاوةُ النفس مقام الأبدال من الصديقين إلي أن قال والصبر علي الأحكام مقام المؤمنين والرضي بها مقام

الموقنين فبهذا نوقِفُك علي شواهد هذا المقام في {شيخنا} في بعض مقالاته الحالية لتستحضر بذلك شواهد الأحوال بلسانها فإنه أصدق من لسان المقال تقوم لك البينة في فَحْوَى الكلام عن الخطاب قال:

*

*

*

فانظر التحقق بالعبودية في مقام الصبر حين انعدم وخَلَفَه الرِّضي بالقضاء إذ لم يشهد في البلاء وشِدَّةِ الْحُكْمِ الجاري عليه في هذا الأوان إلا حسن نظر المولى له لكونه ما جرى سببا لحصول الرغبة وهو رضي الله وتقصيةِ الغير عنه وقطعِ العلائق بينه وبين الخلائق لتخلية القلب عن غير المولى ترى ذلك في وصفه للذي أسند إليه الفعل فقال {عن المولى تعالي الذي ربي فؤادي} فجعل البلاء جِلاء الصَّدَأِ عن القلب كيف لا

يرضى بهذا القضاء إذ به تيقن بالمبالاة [203] واستبقى بقبوله في العبودية والاختصاص به في ربوبيته تعالي واصطناعه إياه لنفسه عز وجل قال في {القوت} فمن الرضي سُرور القلب بالمقدور في جميع الأمور وطِيبُ النفس وسكونها في كل حال وطمأنينة القلب عند كل مَفْزَعٍ ومَهْلَعٍ من أمور الدنيا وقناعةُ العبد بكل شيء واغتباطُه بقسمة ربه وفرحُه بقيام مولاه عليه.
فرضاه رضي الله عنه في هذه الحالة حالةَ الفتنة والبؤس والضيعة والغربة ما هو إلا فرحٌ بقيام مولاه باعتقاد حسن التدبير وكمالِ التقدير كما قال {الشيخ أبو طالب} قريبا من هذا فهو رضي الله عنه رضي بِحُكمِه عليه إذ يقول بعد هذا الشطر: {رَضِيتُ عَنِ الْمَوْلَى تَعَالَي الذِي رَبَّى * فُؤَادِي وَأَغْنَانِي فَأَكْرِمْ بِهِ رَبًّا} تراه لم يرض في هذه الأحكام إلا حسن تدبير المولى له من ثمرة رضاه بالقدَرِ فهَبَّ عليه الروْحُ والريحانُ من نسيم القرب فاستغنى بربه حيث قال {وَأَغْنَانِي فَأَكْرِمْ بِهِ رَبًّا} أغناه ربُّه به فاستغنى فاغتبط بذلك وأثنى علي مولاه بقوله {فَأَكْرِمْ بِهِ رَبًّا} ثم شرع في الحال إلي تجديد الخدمة من هُبُوبِ نَسيم المحبة التي لا يَفتُر الهائمُ بها عن خدمة مولاه التي يرى بها سعادته وازدياد لذته خدمة استحلاءٍ والتِذَاذٍ حيث لا أثر للتعَب والرَّهبةِ والرَّغبَةِ بل إعظاما [204] وإجلالا وفَرَحا وابتهاجا قال {بِهِ قَدْ غَنِيتُ الْيَوْمَ عَبْدًا لَهُ بِهِ * خَدِيمًا دَوَامًا لِلذِي اخْتَارَهُ حِبًّا} هذا هو حقيقة الرضي بما أقيم فيه العبدُ من شِدَّةٍ ورخاءٍ وفاءٌ للمقام بالعمل بعلمه في وقته صابرا شاكرا قانعا برزقه يشكر علي الحال لمعرفته ما قنَعَ به ورَضِيَ باختياره تعلي علي ما صرف عنه وزَوَى من الفضول ثم رجع إلي النفس فزجرها عن موقف رؤية أثرها في الأمور فنفى بذلك العُجْبَ والكبرياء بقوله {عَبْدًا لَه بِهِ} لأن العبد لا

حال له مع ربه في اختياره تعالي لأنه عز وجل يتصرف في ملكه ولا متعرِّض له في حكمه له الخلق والأمر إنما علي العبد الرضي علي كل حال جرت به المقادير لأنه في نفسه مِلْكًا لمجريها فبقوله {عَبْدًا} حذف أثر الغير في التصرُّف وقال {بِهِ} فأراك بهذا أن الجميع وإن كان هو في الأحوال المرضية عنه به تعالي أنه لا تعمُّل له فيه ولا حول ولا قوة إنما استعمله ووفَّقَه الفاعلُ المختار المستحِقُّ عليه الثناء والعبودية وأنه هو مُسَبِّبُ الأسباب وله في خلائقه اختيار مطلق اختار به سيدَ الوجود دليلا عليه وسببا في هِداية الخلق إلي معرفة واجبهم نحوه تعالي فقال {خَدِيمًا دَوَامًا لِلذِي اخْتَارَهُ حِبًّا} فهو رضي الله عنه لعلوِّ معرفته وكمال أدبه في معاملاته لربه لا يُخِلُّ في أي مقام من مقاماته أو حال من أحواله بأدب من آداب مواقف الحجاب وراء الستر المسبَل [205] بين الخالق والخلق وهو الوسيلة والواسطة الأعظم صلي الله عليه وسلم وخدمتُه عليه السلام الإيمانُ به واتباعُ النور الذي أنزل معه بقيادته وإرشاده ونصيحته فقال {بِهِ قَدْ غَنِيتُ اليَوْمَ عَبْدًا بِذِكْرِهِ * وَعَنِّي يَكُفُّ الْعَارَ وَالنَّارَ وَالسَّبَّا} فباحَ بأن غِناءَه وعبوديتَه إنما هو لاتباع النور وهو الذكر وأنه به كُفِيَ العَارَ والنار والسَّبَّا فلم يتألَّم بشيء ولا يُقلِقُه شيءٌ بعد المشاهدة وذلك حيث يكون صاحب المقام يعبد الله إجلالا وإعظاما ولأنه المستحق للعبادة بذاته لا لخوف ولا لرغبة ثم قال في تحقيق ما سبق أو تحققِه:

*

*

*

قال {إليه الْتِجَائِي} في تسليم الأمر له وتفويضه إليه من ثمرة المعرفة العُلْيا التي تَظهَرُ من قوله {وَهْوَ مُغْنٍ وَوَاسِعٌ لَهُ الْمُلْكُ} علي عادته في التجدُّد من التمكُّن كلما جَدَّدَ رَبُّهُ تصرُّفًا فيه وإلا فما زال مُلْتَجِأً إليه في أموره كلِّها.
حَكَى عَلَيَّ العَمُّ {إبراهيمُ فَاتِ} أنه في اليوم الذي تُوُفِّيَ {الشيخُ الوالد}وذهبوا به إلي مقابر {دِقْلهْ} وقد أرسلوا إلي {محمد مَارْ صَلْ} العالم العلامة من {طَيْبَهْ دَقَارْ} لأنه كان [206] قرين صاحبِ الجَنازة في المدرسة ونظيره في التدريس ليُصلِّيَ عليه للخُلَّةِ الإسلامية التي جرَتْ بينهما ودامت أن ذلك الشيخَ بعد الفراغ من أمور الجنازة بعد الدفن نادى في ملأ من الناس شيخَنا الجديدَ الفقْدَ إذ ذاك فلبَّاه {الشيخ} وجعل يوصيه ويطيِّبُ نفسه بأنه وسائر أقرانه سيقومون كلهم مقام والده له فأجابه {شيخُنا} إنما النصر من عند الله ولن يعدمه العبد المتوكل عليه إذا شاءه فهذا الجواب البديهي من أكثر الناس أدَبًا ورِفْقا خَشِنٌ ولكن أنَّى يَصْدِفُ عنه وقد غمرته المعرفة اليقينية التي قامت

مقام المعاينة لعظمة مولاه وأنه المستولي علي الأمور وحده لا شريك له وكيف لا يبوح بما في نفسه بعد غلبة الحال عليه فجأة لعلو توحيده فالتجاؤه إليه بعد التمكن والرضا التجاء خاص يُثمره التوكل في مقامات اليقين ويُثمر هو الرضا إذ يقول {وهو مغن واسع له الملك ثم الحمد} ثم قال {والحال قد ثبا} مما يدل علي أنه لم يشاهد الأمور والخلق إلا في يد مُدَبِّرِهِمَا ومالكهما لأن ثَبَّ بمعنى تَمَّ لفظا ومعنى ففما ذا عسى بعد أن كان الغنيَّ بنفسه والمغني لمن يشاء والواسعَ الذي وسعت رحمته كل شيء وهو المالك المتردِّي بكبرياء الملك مع التقديس الكامل لأن الحمد لا يستحقه إلا من يملك التقديسات [207] كلَّها والثناء الأعلى إلا أنه يجب علي كل عبد الرضي بأحكامه في مُلكه والفرح به لكماله الجميل ثم شرع يُقيم شواهد الأحوال والحوادث علي صدقه ذوْقًا حقا لا شَوقا وتصديقا فَحَسْبُ فقال:

*

*

شاهد هذا الحال لا يقف بصاحبه إلا بموقف الرضي والأنس بعد حسن توكله ومشاهدة تقديسه وعظمةِ مُلكِه وجلاله فوق كل شيء هو إذا التجأ إليه التجأ إليه لأنه ما تمَّ إلا مُلْكُه ولا حال للعبد منه إلا الرضي فضلا عن الصبر تحت مجاري أقداره والشكر له بمَنِّه عليه

بمعرفة جلاله ونفوذ إرادته في الأمور كلها لا يُسأل عما يفعل فإن عُومِلَ بهذه الكرامات من تأييد وحفظٍ ونصرٍ عِيانًا حاضِرَةً كيف لا تختلف عليه أحوال المحبة في مقام رضاه وهو العبد الذي يرضى في مواقف الصبر ما دام البلاء ويشكر علي ما يُصْبَرُ عليه ثم جعل يستأنس به تعالي ويتحدث بنعمه عليه شكرا ورضي ومحبة فقال:

*

[208]

{خاتمة في شهادات الأكابر والأعيان من العلماء الأولياء والمشايخ}

حكى عليَّ {الشيخ مُحِمَّذٍ بن أُحْمَيِّدْ} أنه كان ذات يوم يتحدث مع أستاذه علامةِ بني ديمان بل علامةُ الصحراء الكبرى قاطبة {الشيخ حامِد بن مَحَنضْ بَابَهْ} في شأن {شيخنا رضي الله عنه}وكمالِ فضله فقال {الشيخ حامد} هذا الشيخُ تكاملت فيه الفضائل والخِصال الحميدة بقيامه بحقيقتي الزهد والاستقامة وتحتهما الأوصافُ السلبيةُ والإيجابيةُ المطلوب استيفاؤُها علي وجوهها.
قلتُ وهذه شهادة حقٍّ لم ينطق بها صاحبها عن هوى ولا عن عِمايةٍ.
وحكَى عليَّ أخونا العلامةُ {عبد القار الكُمْلَيْلِيُّ} وكان مع {الشيخ باب ابن حَمْدَ} وله عنده مكانة وحُظوةٌ أنه سأل الشيخَ ذات يوم عن زيارة {شيخنا} وما حالُه فقال

لي اعلَم من ذلك ثلاثةَ أمور أنه عالمٌ وأديبٌ ووَلِيٌّ. وأما العلم فقد تكلمت معه فوجدته لا يُخطِئُ الصواب في مواضع الغلَطِ الكثير من العلماء، وولايَتُه عندي لها دلائلُ يقينيةٌ [209] وأغرب شيء فيه عندي أدبُه المفقودُ في بني الزمن، وفي هذا المعنى قال فيه بعض الأئمة العلَوِيين وهو {الشيخ محمد بن بَدّ} ذلك العارف السَّنِيُّ المَرضِيُّ عند الخاص والعام الذي من بعد صوالحه أنه لم يزل يصلي وردَه في الليل بسُبُعِ القرآن وقس عليه ما لم أقل قال: إن ولاية {الشيخ أحمد بَنْبَ} حقَّها بالشهود.

وقال نحوه ابنُ عمِّه إمام العلماء في زمنه الورع العدْل الفقيه المحدِّث مَن آياتُ وَرَعِه يُضرب به المثلُ في حياته وبعد مماته {مَحَمْدِ المختار} إنَّ ولاية {الشيخ حمد بنْبَ} شهدت عليها قرائن أحواله حتى صارت بمنزلة القطع.

وكان الإمام صاحب {الفتح} {محمد فَالْ بْنُ بَابَ} آخرهم وفاة وهو وشيخنا في سنة واحدة يقول إذا ذُكِرَ أحدٌ بالولاية من أهل زمنه عنده أنا لا أشهد علي ولاية أحد إلا علي ولاية {الشيخ أحمد بنب} الذي رأيت الأئمة العُدول الذين عرفوه قطعوا بصحة ولايته {كأحمد بن بدّ} {والشيخ أحمد} {ومُحَمْدِ المختار} فجزاهم الله خيرا من أئمة نصح ما أعمتهم الرئاسة عن الصدع بالحق وكانت لهم مندوحة عن التصريح بهذا فإنهم علماءُ صُلحاءُ أتقياءُ أئمةٌ رؤساءُ مُقلَّدون في أهليهم فقهاءُ يرجع إلي فتواهم بنو عصرهم متقيِّدون بوِرْدٍ [210] من أعظم الأوراد موقعا ما غيَّنَ علي قلوبهم ولا عم علي بصائرهم جزاهم الله خيرا وحفظهم في أهليهم وبنيهم وقومهم من بعدهم اللهم آمين.

قلت وهذا مثال صِدق عن منزلته عند البياضين ومكانته في أفئدتهم لأن هؤلاء ما عرفوه إلا بعد أن أخذوا التيجانية فكيف بمن تمسكوا بوِرْدِه أو تعلقوا بأذياله وإن لم يلتزموا طريقته من أحبائه بني {ديمان} وسائر {تَشُمْشَ} {وبني الحسن} وغيرُ وغير.
وبلغني عن أحد الثقات من تلامذة {الحاج عبد الله سيس} أنه كان يقول: لا يحلفنَّ أحدكم بما يُتصوَّرُ وقوعُه غالبا ويضحك ثم يُمثِّلُه لهم بشيئين أحدهما لا يحلف أحد بأنه لا يذهب إلي أرض {بَدَّايَ} وهي أرضٌ صالحةٌ الزراعةِ جدًّا أصلح من غيرها في {سَالُمْ} فإنا ما رأينا من ذهب إليها ثم يرجع عن فعله تندُّما وكذلك لا يحلف أحدكم بأنه لا يزور {الشيخ أحمد بنب} فإنا جرَّبنا أنه ما فعله أحد وندم عليه ولذلك ترى الزوار يزدادون عنده ولا يتخذون إلا سبيل رشده سبيلا.[211]
بعون الله تعالي وحسن توفيقه وبحقبة تزيد علي عشرين أشهرا وجهودٍ مضنية من الكتابة والمراجعة انتهت كتابة هذا المؤلف القيِّم من نسخته الأصلية القديمة إلي النسخة العصرية الحديثة بيد أخيكم المريدِ الحقير عبد القادر مبكي ابن السيد شيخ أحمد ميمونة الكبرى مساء الأحد العشرين من شهر ربيع الثاني عام حكتش 1428 هجرية الموافق لليوم الثالث عشر من شهر مايو سنة ألفين وسبع 2007 ميلادية طالبا من الله تبارك تعالي أن يتقبله منا
اللهم اغفر للكاتب والقارئ والناظر والناشر ولكل من حصَّلها وأعان علي تحصيلها بشيء ولجميع المؤمنين والمؤمنات وأدخلنا جميعا برحمتك التي وسعت كل شيء آمين يا رب العالمين اللهم صل علي سيدنا محمد وسلم